

# تميم الفاطمي

الدكتور عارف تامر

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

تَمِيمٌ الفَاطِمِيّ

# تميم الفاطمي

## ابن الامام المعز لدين الله الفاطمي
## شاعر الحب والعاطفة والجمال

تأليف

الدكتور عارف تامر



مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٢٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

## الكلمة الأولى:

عندما تطلُّ صروف الحياة بوجهها العبوس، وتهب عواصف الأيام غضبى. لا أجد منتجعاً إلَّا صومعتي المتواضعة الكائنة في زاوية مهملة من بلدة سلمية ـ سورية، انقطع فيها إلى أفكاري وتأملاتي. أعبُّ من الذكريات مرارة الأسى، وأتفيأ ظلال الوحدة والسكون.

في غمرة انقطاعي أمس، عاودتني ذكرى تميم الفاطمي الشاعر الذي أغفلوا ذكره تقصداً، وتناسوا شعره تعمداً... عاودتني ذكراه رفافة ناعمة مطلَّة تتمنى عليَّ أن أكتب عنه دراسة تظهره على مسرح الحياة، وتدنيه من القلوب والأفكار. فرضخت للأمنية الغالية، ولبيت نداء الواجب الأدبي الملح.

فكم هي رائعة حقاً هذه الظروف العاتية التي تجبر أصحاب الأقلام على اللجوء إلى صومعاتهم يعيشون فيها مع العباقرة الملهمين، عندما تهب عواصف الأيام الصاخبة، وتتدفق سيولها الجارفة.

وكم هي جميلة هذه العزلة التي تحمل الأدباء على الاستغراق في عالم الروح والخيال بعيدين عن مجتمعات

الحقـد والنميمة، ومجـالس البغض والضغينة، وخـاصة عندما يبرز الممثلون والمهرجون على مسارح الحياة، ويطن ذباب المزابل في الأسماع، وتدب الحشرات النهمة على الأرض.

فإلى روح تميم التي اتشحَّت برداء الحب والعاطفة والجمال، وتضمخت بأريج الشوق والود والصفاء... إلى تلك الروح الناعمة الجزلى التي غنَّت الدهر الألحان العذبة الشجيَّة.

كل حب وذكرى ووفاء

**المؤلف**

# الأدب في ظل الدولة الفاطميَّة

عندما فتح الفاطميون البلاد المصريَّة سنة ٣٥٨ هـ، بنوا مدينة القاهرة وجعلوها قاعدة لـدولتهم الجديـدة، وبعد أن تمَّ لهم ما أرادوا من الاستقرار، وجهوا اهتمامهم إلى الأدب فأقاموا دعائمه، ورفعوا منائره، وعملوا على خلق نهضـة أدبية زاهـرة شملت جميـع أنحـاء دولتهم الفتيَّة، وأوجدوا عصبة من الشعراء والأدباء والعلماء كانوا يهتـدون بهـديهم وتـوجيههم، فـأخلصـوا لهم أشـد الاخلاص، ونظموا بهم غرر القصائد، وروائع الأقوال.

لهذا فإذا ما ذكرنا الأدب الفاطمي في تلك الحقبة من الزمن، يتبادر إلى الأذهان هذه الذخيرة الثمينة من ثمرات قرائح الأدباء والشعراء الذين عاشوا في ظل الدولة الفاطمية، وقد كانت بخصبها ونعمائها وفيض مواردها، وتناثر نضارها، ووفرة خيراتها، وغزارة ينابيعها، أعظم دعامة لصرح الأدب المصري الباذخ الأنيق الذي يعتبر بحقٍ من مفاخر العالمين العربي والإسلامي.

وقد يكون من الواضح أن الحياة الفكرية والأدبية في تلك الفترة من الزمن كانت مزدهرة يانعة تسير في طريق التطور والنهوض، حتى لا أغالي إذا قلت أن العالم لم يشاهد عصراً تضافرت فيه عوامل النهضة الأدبية كذلك العصر، أو دولةً اجتمع في ظلها الأدباء والشعراء والعلماء كهذه الدولة، وقد يكون صحيحاً وواقعياً أيضاً أن الدولة الفاطمية الانموذجية الشامخة استطاعت وهي في مستهل عصرها الذهبي، وفي ابان عظمتها وقوتها وأبهتها وجلالها، أن تطبع الأدب العربي بطابعها، وأن توجهه في السبيل الذي تشاء، بإعطاء صورة واضحة عن حياة المجتمع والدولة، كما أنها وفرّت الأسباب لتشجيع كل ما يمت إلى الأدب والفكر بصلة، فوفد إلى مصر نخبة من الشعراء والعلماء والأدباء، وبرز إلى المجال رجال أفذاذ صالوا وجالوا على مسرح الشعر والأدب، وقدموا أجل الخدمات للدولة التي عاشوا بظلها، ونفحوا المكتبة العربية بأقوم المؤلفات وأندرها وأعمها فائدة، كما أن قرائح الشعراء جادت بالشعر العذب الرقيق الذي رددته الركبان، وتغنىّ به الناس في المجالس والمنتديات.

ولا بد من القول أن البلاد المصرية في ذلك العهد كانت تحيَ حياةً لم تعرفها من قبل، فأفريقيا جميعها،

ومصر كانوا من ولايات الدولة العباسية، ولم تلبث القاهرة حتى أصبحت عاصمة لامبراطورية إسلامية واسعة الأرجاء ومترامية الأطراف، وبعد أن كانت الأموال تخرج منها إلى بغداد، أصبحت تتدفق اليها من جميع الأقطار، فكل هذا كان عاملاً كبيراً لازدهارها، وخروجها من عزلتها، وانبثاق دولة الأدب فيها، وشروق فجر حضارة جديدة.

والفاطميون كما عرف عنهم عملوا على منافسة العباسيين في المشرق، والأمويين في الأندلس، فبالغوا في التظاهر بالترف والنعيم، وأسرفوا في ذلك إسرافاً منقطع النظير، حتى أصبح الأعداء يخشون من بأسهم، شأنهم في ذلك شأن الامبراطورية البيزنطية التي اعتمدت على التظاهر لادخال الرهبة في نفوس الأعداء والحلفاء على السواء، هذا من جهة ومن جهة أخرى فأول ما يتجلى من العوامل التي أدَّت إلى نشاط الأدب في عهدهم، هو أن خلفاء تلك الدولة كانوا أنفسهم من حاملي لواء الأدب يقدرون جيد القول، وينافسون العباسيين في الاضطلاع بالعلم والأدب والفنون الأخرى، فجعلوا من القاهرة ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، وجعلوا الأدب أيضاً زينة مجالسهم، وحلية دولتهم.

ومهما يكن من أمر فـان النهضة الأدبيـة في مصر الفاطمية تعتبر أقدم منها في العراق العباسية. ففي مصر ازدهر الأدب منذ أواخر القرن الأول للهجرة، ثم سلك سبيله إلى التطور والرقي هادئاً مطمئناً طوال القرنين الثاني والثالث، وظلَّ على ازدهاره لم يفتر أو يدركه الخمود حتى جاء الفاطميون فدفعوا الحضارة دفعة قوية إلى الأمام، ومهدوا لها أسباب التفوق والوصول إلى الأهداف المثلى، فبرز الأدب والشعر والنثر والفن، وسطع نجم الفلسفة والعلم وغيرهما من أمور المعرفة، ولا غرابة بعد ذلك أن تزدهر الحياة العقلية ازدهاراً منقطع النظير، وأن يسرع الأدباء يلتمسون فضل الفاطميـين وتشجيعهم فيجدون عندهم ما يأملون وفوق ما يأملون، فهم الذين عاهدوا الله أنْ يسبقوا بغداد في كل شيء، وأن يقهروها ويتفوقوا عليها في كافة المجالات.

إذن نستطيع أن نقول على ضوء ما ذكره التاريخ أن الفاطميين جعلوا للأدب دولة، واتخذوا من الشعر سلاحاً يـدافعون بـه خصومهم، ويـرفعون بـه شـأنهم وشـأن عقيدتهم، فأكثـروا من إستحداث المـواسم والحفلات، وافتتنوا في إقامة حلقات الشعـر، حيث كان الشعـراء يتبـارون في إنشاد قصـائدهم، ويتنـافسون في الإجـادة

والاتقان، بحيث ينعمون في أخذ ما يتكرمون عليهم من الجوائز والهبات، مما لم ينعم به الشعراء في الدول الأخرى.

وبالغ الفاطميون في الاهتمام بالشعر، وتقريب الشعراء على اختلاف مذاهبهم، فاتخذ أكثر هؤلاء من الشعر آداة لنشر الأفكار الفاطمية، وتحقيق سياسة الفاطميين، ومنازلة العباسيين، وحرص الشعراء كما قلنا على إتقان الشعر والإكثار من جيده، وكل ذلك في سبيل الهبات، والتفوق في مجالس الأدب والمناظرة، ولا أستثني من هذا شعراء العقيدة.

ولا ريب أنه كان للطبيعة المصرية الجميلة أكبر الأثر في هذا الانتاج الغزير، فالمصريون كانوا يخرجون في ذلك العهد إلى المتنزهات والأماكن البديعة التي هي جزء من مقومات الحياة، فيقصفون ويطربون وينعمون بجمال الرياض وأريج الزهور ومنظر الماء، فيتطارحون الشعر ويتبارون في الانشاء ويستوحون من الفن والجمال وهي شعرهم... وكل هذا كان مصدراً خصباً للكثيرين من الشعراء المصريين في العهد الفاطمي. والمصريون كما عرف عنهم ميالون إلى اللهو، وإلى الأخذ من نعيم الدنيا بأوفر قسط، فالفكاهة تجري في عروقهم مجرى الدماء، ولهذا

فقدْ صوَّر شعـراؤهـم الحياة المنعمـة التي أضفى عليها الفاطميون بذخهم وكرمهم، فظهر ترف على ترف وكثر المجون وكثر الوصف في الشعر، وتسـابق الشعراء إلى الاجادة الفنية والابتكار وإلى الإنشاد في كل غرض من الاغراض، وكل لون من الوان الحياة... جدها... وهـزلها... يسـرها... وعسـرها... ضـاحكهـا... وباكيها.

والشعر ما كان إلا خلقاً يطبع العصر الذي هو فيه، ويصور النزعات النفسية والاتجاهات الوجدانية، أو بلغة أصبح هو اداة للتعبير عمَّا تنطوي عليه النفس من عواطف وآمال وآلام، وما يسبح فيها من المعاني الحائرة، وما تشق عبابه من الذخائر المعنوية المتلاطمـة المتموجـة في هذا الكون، وهو الذي يجلو لنا ما في الحياة من أسرار، وما يكمن في طياتها من حق وخير وجمال. فالشاعر هو الذي يحمل لواء هذه المقاصد، ويضفي عليها صفـاء الحس وسمو الغاية وصدق النظر والوجـدان الصافي والخيـال المرهف وسلامة الذوق، فيقودنا إلى المناهل العذبة ويدلنا على النبيل من الخير، وعلى الفاتن من الجمال.

وعند ذكر خصائص الأدب في العصر الفاطمي لا بد من القول بأن ذلك يتجلَّى بما اقتضاه تدرج الحياة، ووفرة

الترف، وامتزاج المصريين بغيرهم من الشعوب، وما نجم عن ذلك من تجدد الميول، وتغيير الطباع، وكل هذا يعتبر مظاهر حيوية ظهر أثرها في الأدب العربي، والأدب إذا ما استهدف مسايرة الحياة ونزعاتها وألوانها ونظمها، فيكون حظُّه من التقدم مرتبطاً بما ينال من مكافأة وتشجيع، وما يصادفه من الأسباب التي تحفزه على القول، وعلى الانتاج الفكري، وعلى إيقاظ النفس للميل إلى التعبير، وإغراء الشعراء، وإفساح المجال للكتاب.

وقد نلمس أن الأسلوب الأدبي في تلك الفترة قد ارتدى طابعاً جديداً، فاتجه إلى الابتعاد عن الغريب من الألفاظ، وإلى الميل إلى رشيق العبارة، ورائق الديباجة، ورقيق المعاني، وسهولة التراكيب، والعناية البديعية بالتشبيه والاستعارة، أمَّا في المعاني فقد نجد الأثر الحضاري المطبوع الذي يدل على النضارة، وعلى المجد التليد، فالمعاني كانت حضرية لبابها زخرف الحياة، ومباهج الرياض، ونعيم الدنيا، فمن كل هذا كان يُصاغ الأدب حياة ولآلئى وعقوداً، فهو قوة في النسيج، وعظمة في الديباجة والتصوير، مع رقة وروعة وخيال صافٍ، وعناية بالصنعة اللفظية وبرقة أقرب إلى الجزالة، وديباجة ارتدت ثوب التمجيد والاطراء، وازدانت بمظاهر

الجمال والرشاقة وحسن الرونق وزينة اللفظ، والمحسنات والصناعة البلاغية.

ومهما يكن من أمر فلا بد من التوفيق بين الأدب واتجاهه، وبين ما ينبع منه، وما يقوم لخدمته، وهو الحياة التي لا غنى لها عن الأدب، ولا غنى للأدب عنها، وهنا لا بد أن يتصل الأدب بالنفوس وخلجاتها وآمالها ونزعاتها، وبالحياة وأسرارها ومشكلاتها وبالطبيعة وما فيها من جمال ومظاهر، فالأدب لا يقوم إلاّ على دعائم من الحياة، وأغراضه إنما تقتبس من الحياة ذاتها، ومن التفكير في مظاهر الكون وبديع ما خلق الله، وفي الأسرار الكامنة في نواحي هذا الوجود الناطقة في صمتها، المتموجة في سكونها، المملوءة بغزير الايحاء، ومختلف المعاني، ولا معنى للحياة إذا خلت من كل هذا، كما أنه لا أثر للأدب ولا بقاء له إذا لم يستمد قوته وعناصره من هذا أيضاً.

وإن مظاهر الشعور هي الفكر والوجدان والارادة الكامنة التي تتجلى في غايات ثلاث تنشدها الانسانية وهي: الحق والخير والجمال، فالفكر غايته الحق، والوجدان غايته الجمال، والارادة غايتها الخير، والحق والخير والجمال هي المثل الأعلى للنفس أو بلغة أصح

ضالة الحياة، والأدب هو لغة الحياة، لأن الحياة لا غنى لها عن أدب يرسم الفاظها وجمالها، ويصور عباراتها مما يكون للانسانية هادياً، ولأسرار الحياة كاشفاً، وللمثل العليا مرشداً.

وبعودتنا للموضوع نقول:

إن الخلفاء الفاطميين أسرفوا في الاغداق على الأدباء والشعراء والفلاسفة بما يملكون من مال ومتاع، فهم كانوا يظنون أن هؤلاء من طبقة غير طبقة الشعب، وأنهم جديرون بالارتفاع فوق مستوى العامة، ولهذا مكنهم هؤلاء الخلفاء من الظهور بمظهر الثروة الطائلة والجاه الرفيع، وأن يتخذوا من الحياة أبهجها، ومن مظاهر الأبهة أوفرها، ومن اللباس والزينة أزهاها، وأكثروا من اقتناء القيان وإقامة المآدب واستدعاء الخلّان لمجالس اللهو والشراب، حتى أصبحت حياة المصريين كلها لهواً وقصفاً وغناء والحاناً. ومن عوامل ازدهار دولة الأدب والشعر في العصر الفاطمي، ان الخلفاء القائمين على شؤون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية والعقائدية كما قلنا، على نحو ما تتخذه الأحزاب السياسية اليوم من الصحف والمجلات والنشرات وسيلة للتعبير عن اتجاهاتها ومبادئها وآرائها. وقد عرفنا أن

الفاطميين عرفوا قدر الدعاية، فاهتموا بها أي اهتمام. واصطفوا كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء، ولعلهم أدركوا بثاقب نظرهم أن الشعر العربي منذ أقدم العصور كان ولما يزل من أهم وسائل الدعاية للدول وللأحزاب وللامارات. فلا غرو بعد هذا إذا ما وجدنا الفاطميين يبذلون العطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم، ويجعلون لبعضهم إعانات ومرتبات شهرية، هذا ويذكر التاريخ أنه كان للشعراء رواتب شهرية جارية، وجوائز سنية، وتبرعات دورية، ويزيد المؤرخ المقريزي على ذلك قوله أنه كانت في [بركة الحبش] طاقات عليها صور الشعراء، واسم كل منهم وبلده، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من قماش كتب عليها قصيدة من شعر الشاعر في المدح، وان الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله لما دخل وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، وان يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيديه.

هذا... ومن المفيد أن نذكر أن الخليفة الامام المعز لدين الله الفاطمي أعطى قصراً فخماً للشاعر ابن هانيء الأندلسي عندما أنشده في القيروان إحدى قصائده، وعندما علم أخيراً أن الشاعر لا يملك نفقات فرشه أمر

بفرشه له، ومما يجب أن لا يغفل أن سيدات القصور الفاطمية كن يغدقن الأموال الطائلة على الشعراء تشجيعاً لهم، ويحدثنا الشاعرة عُمارة اليمني أن بنت الحافظ الفاطمي نفحته مرة بخمسمائة دينار. كل هذا والتاريخ يضيف بأن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة = مقدم الشعراء = دليلاً على اهتمامهم بهذه الناحية، وتشجيعاً لها، وكل ذلك يعطينا الدليل على تفوق هذه الدولة الناشئة في تمجيد صرح الأدب وإقامة دعائمه، وتعزيز دولته، ولا عجب فقد عرفنا أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم كانوا يتذوقون الشعر، فهم كانوا يعتبرونه من الفنون الجميلة التي يجب العناية بها لكل من نال حظاً من الثقافة ورقة الشعور ودقة الاحساس مضافاً إليه أن منهم من كان ينظم الشعر، ويذكر التاريخ للامام المنصور بالله قوله:

تبدلت بعد الزعفران وطيبه
صدا الدرع من مستحكمات السوامر
ألم ترني بعد المقامة بالسرى
ولين الحشايا بالخيول الضوامر
أروني فتى يغني غنائي ومشهدي
إذا رهج الوادي لوقع الحوافر

أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد
بسيفي أقدُّ الهام تحت المغافر

ومن شعر المنصور بالله يخاطب ولي عهده المعز لدين الله :

كتابي اليك من أقصى الغروب
وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوي الرمال
وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله
وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن يرى السير أجسامنا
وكلَّ الركاب وتاه الدليل
فواغربتاه وواوحشتاه
وفي الله هذا قليل قليل
وما ضقتُ ذرعاً ولكنني
نهضت بقلبٍ صبور حمول
وقد منَّ ذو العرش من فضله
بفتحٍ مبين وعزٍّ جميل
فلله حمد على ما قضى
وحسبي ربي ونعم الوكيل

وإنك لتلمس أن قائل هذه الأبيات يملك ناحية الفن في المعنى واللفظ، فهو يختار اللفظ الذي يتلاءم في موسيقاه مع المعنى فيلذ العقل والاذن.

ويقول ابن خلكان:

إن الامام المعز لدين الله كان شاعراً رقيقاً فضلاً عن أنه كان يجيد اللغات الدارجة في عصره كالبربرية والرومية والصقليية واللاتينية وغيرها ومن قوله:

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر في المعاجر
أمضى وأقضى في النفوس من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت ببينكم تعب المهاجر في الهواجر

ففي هذه الأبيات الدليل على أن الامام المعز كان من شعراء الزينة البديعية، وينسبون إليه أيضاً قوله:

اطلع الحسن من جبينك شمساً
فوق وردٍ في وجنتيك أطلّا
وكأنَّ الجمال خاف على الور
د جفافاً فمدَّ بالشعر ظلاًّ

هنا نلمح صورة جميلة من الصور الشعرية المغلفة بالفن... فهو يشبه جمال المحبوب بصورة من صور الطبيعة. المحببة إلى النفس، فيقول عنها أنها مثل الوردة

المتفتحة التي غمرتها الشمس، وتظهر دقة التصوير والبراعة ورقة الشعور عندما يخاف على الوردة من أن يعتورها الذبول من أثر حرارة الشمس ولكنه يطمئن عندما تأتي خصلة من شعر المحبوب لتظللها وتقيها.

وروى الثعالبي للامام العزيز الفاطمي قوله:

نحن بني المصطفى ذوو محن    يجرعها في الحياة كاظمنا
عجيبة في الأنام محنتنا    أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم    طراً وأعيادنا مآتمنا

وتنسب إليه أيضاً هذه الأبيات:

ولمَّا رأيت الدين رثَّت حباله
وأصبح ممحو الضيا والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة
تسوم عباد الله خزم المخاطم
وتحكم في أموالها ودمائها
بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غضبة ثائرٍ
غيور عليها مانع للمحارم
بنا فتحت أبواب كل هدايةٍ
ومنَّا بحمد الله خير الخواتم

فقل لبني العباس مع ضعف ملكهم
بـأنهم أسـرى بـأيـدي الأعـاجم
عضبتم بني مـروان مـا عضبـوه من
مـواريثنـا سـحـقـاً لـظالم ظـالم
سنسقيكم كـأسـاً كـما قـد سقيتم
أوائـلنـا والله أعـدل حـاكـم

وتنسب للامام الحاكم بأمر الله هذه الأبيات:

دعِ اللوم عني لست مني بموثقِ
فـلا بد لي من صـدمـة المتحنق
وأسقي جيـادي من فـرات ودجلة
وأجمع شمـل الـدين بعـد التفـرق

وتنسب للامام المستنصر بالله أبيات ذكر أنه كتبها على رقعة كان قد أرسلها إليه داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي عندما أعياه الدخول لمقابلته:

| | |
|---|---|
| أقسم لـو أنـك تـوجتني | بتاج كسرى ملك المشرق |
| ونلتني كـل أمور الـورى | من قد مضى منهم ومن قد بقي |
| وقلت أن لا نلتقي ساعة | أجبت يا مولاي أن نلتقي |
| لأن إبعادك لي ساعـة | مشيِّب فوديَّ مع المفـرق |

فأجابه المستنصر:

يــا حجــةً مشهــورة في الــورى
وطــود علــمٍ أعــجــز الــمــرتـقـي
مــا أغــلقــت دونــك أبــوابــنــا
إلَّا لأمــرٍ مــؤلــمٍ مــقــلقِ
ولا طــردنــاك مــلالاً فــثــق
بــعــهــدنــا وارجــع إلى الأليــقِ
شيعــتنــا قــد عــدمــوا رشــدهــم
في الغــرب يا صــاح وفي المشرق
فــانشــر لهم، مــا شئت من علمنــا
وكــن لهــم كــالــوالــد المشــفــق
إن كــنــت فــي دعــوتــنــا آخــرا
فــقــد تــجــاوزت مــدى الــسـبـق
مــثلك لا يــوجــد فيمــن مضــى
من ســائــر النــاس ومن قــد بقي

في نهاية مطافنا لا بد من القول: بأن كتب الأدب الفاطمي فقد أكثرها... وإذا قلنا بأن جناية الأيوبيين على الكنوز الفاطمية الفكرية لا يمكن أن يعادلها جناية، فلا نكون هنا قد تجنينا عليهم، فالمؤرخون يذكرون كيف نهبت تلك الكتب، وكيف استخلص منهــا «القــاضي الفاضل» لنفسه نفائسها، ونسب بعضها إليه، ثم كيف

بيع الباقي منها بأثمان بخسة ليكون وقوداً للحمامات، وكيف قذف بها وأحرقت في تلال المقطم، وكيف أخذ العبيد بعضها ليجعلوا من جلودها الجلدية الفاخرة نعالاً لهم، وكيف اتخذ منها الباعة المتجولون قراطيس لبضاعتهم الرخيصة، أو كيف رميَ القسم الأكبر منها في النيل فصبغت مياهه بالمداد الأسود.

ونحن لا نتردد في إتهام الأيوبيين بجنايتهم على الأدب الفاطمي، فقد تعمدوا محو كل أثر من آثار الفاطميين، وقد عرَف أيضاً أنهم أحرقوا دواوين الشعر التي دوّن فيها مدائح للفاطميين، وعلى كل حال فهذا كله من وحي التعصب الذميم، وهو لا يخرج عن كونه خسارة عظمى. وقد لا يجد الباحث سبباً لذلك، ولعلَّ الخلاف بين مذهب الدولتين الفاطمية والعباسية هو السبب، ويأتي بعدهم الأتراك الذين حكموا العالم الاسلامي مدة طويلة ليقضوا على كل ما بقي من ذلك التراث الثمين وبعضه كان في اليمن وفارس وسورية، فالأتراك أحاطوا بحضارتين من أرقى الحضارات التي شاهدها العالم وعرفها تاريخ الفكر البشري، وهي الحضارة البيزنطية والاسلامية، ولعلهم أرادوا أن يسلكوا منهج الأكراد الأيوبيين وكان أن قضوا قضاء مبرماً على البقية الباقية من التراث الفاطمي، وعملوا فيه نهباً

وضياعاً بأساليب وحشيـة وعقلية جـاهلة. وفي معرض الحديث عن التراث الفاطمي لا بد لنا ألاَّ أن نأتي على ذكـر مـا اقتـرفـه المؤرخـون ومنهم: الثعـالبي والمغـربي والبـاخرزي، والعمـاد الأصبهاني فهؤلاء لم يـذكروا في كتبهم من شعر الدولة الفاطمية إلاَّ المقاطع التي نظمها غلاة الشعراء وقصدوا من ذلك إظهار عيوب هذا الأدب دون أن يذكروا محاسنه.

ومهما يكن من أمر فان ما بقي بين أيدينا من الأدب الفاطمي يعطينا صورة واضحة عن ذلك العصر الزاهر ويدلنا على أنه كان خصباً بالانتاج يلقي الرواج ويصادف التشجيع ويوقظ النفـوس... انه أدب خـالد، سـاير العصر والظروف وعبَّر عن الحياة وواقعها، وأعطى كل الصور البديعية والمعاني العميقة.

# الأمير تميم في حياته الغامضة

تعتبر حياة الشاعر الأمير تميم بن الامام المعز لدين الله الفاطمي مقفلة من جميع أبـوابها، وغـامضة أشـد الغموض من جميع نواحيها، فالمراجع التي بين أيدينا لا تعطينا إلّا النزر اليسير عن حياته القصيرة، ولا تصف لنا تلك الأيام التي عاشها هذا الشاعر الأنيق المغمور، وتكاد تجمع هذه المراجع على أن تميماً هو: ابن الخليفة الفاطمي الامام المعز لدين الله فاتح مصر، وأخ لخليفة من الخلفاء الفاطميين هو العزيز بالله وقد أطنب تميم في مدحـه، وعاش تحت كنفه. ويكاد يكون هذا مجمل مـا أورده الثعالبي في اليتيمة، والباخرزي في الدمية، وابن خلكان في الوفيات، وياقوت في معجم الأدباء، وابن فضل الله في المسالك، والمقريزي في الخطط، وابن تعزي في النجوم الزاهرة، والسيوطي في حسن المحاضرة، وبالـرغم من ذلك الغموض في حياة الشاعر فقد كان هناك اجماع على القول بأنه: الأمير تميم بن الامام المعز لـدين الله بن

المنصور بالله بن القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدي الذي هاجر من سلمية ـ سورية إلى شمالي أفريقيا حيث أسَّس الدولة الفاطمية.

ولد تميم سنة ٣٣٧ هـ في مدينة المهدية بتونس وهي المدينة التي بناها جده عبيد الله المهدي سنة ٣٠٨ هـ واتخذها عاصمة لدولته، وظلَّت كذلك إلى أن بنى المنصور بالله مدينة المنصورية سنة ٣٣٧ هـ بعد نجاحه في إخماد ثورة أبي يزيد فخلد بن كيداد الخارجي، تلك الثورة التي دامت زهاء ثلاثة عشر عاماً، فولادة تميم إذن جاءت بعد القضاء على هذه الثورة العاتية بعام واحد، أي في خلافة جده المنصور بالله، ومن الطريف حقاً أن نجد في كتب الفاطميين أن أباه المعز لدين الله كني بأبي تميم ولما يولد، وهذا دليل على أن تميماً كان الابن الأكبر للامام المعز، والذي هو واضح أشد الوضوح أنه كان للمعز ثلاثة أولاد آخرون هم: عبد الله، والعزيز، وعقيل. نشأوا جميعاً في قصر الخلافة الفاطمية بالمهدية ثم بالمنصورية وترعرعوا فيها، وأخيراً جاءوا إلى مصر مع والدهم الامام المعز. وفي الحقيقة نكاد لا نعلم كيف نشأ تميم؟ كما أننا لا نعرف شيئاً عن أساتذته ومعلميه؟ وبالرغم مما نعرفه عن شغف جده المنصور بالله وأبيه المعز

لدين الله بالعلوم والشعر والآداب وتشجيع الشعراء والأدباء والعلماء وجمع الكتب النفيسة من كل فن فهم لم يتركوا لنا بين مخلفاتهم ما ينير السبيل لمعرفة نشأة الشاعر وطفولته وحياته في شبابه ومتى قال الشعر؟ ولكنه ورد في ديوانه أن والده الامام المعز أوفده من سوسه في المغرب إلى المنصورية لمقابلة عسلوج وقبض بعض الأموال منه فكتب إليه:

دهاني بعدك الخطب الجليلُ    فلا حسن لديَّ ولا جميلُ
أروحُ فلا أرى الَّا ثقيلاً    ومن أنا عنده أيضاً ثقيلُ

إذن فتميم قال الشعر في المغرب، ولكن أين شعره المغربي؟.

ومهما يكن من أمر فإن تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب لم يذكر لنا إلَّا أسماء ثلاثة شعراء عاشوا في ظل الدولة الفاطمية في المغرب، ويأتي في طليعتهم الشاعر الكبير ابن هانيء الأندلسي، أما الاثنان الآخران فهما: أحمد المروزي نجل القاضي المروزي الذي تولى القضاء بعهد الامام عبيد الله المهدي، وعلي بن محمد الأيادي، وكما هو الحال، فان الأيام لم تبق لنا من إنتاجهم سوى مقاطع ذكرها القاضي النعمان بن حيون المغربي التميمي

في كتاب افتتاح الدعوة وهي على قلتها لا تنير السبيل ولا تروي الغليل.

قدم تميم إلى مصر وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره، وسكن القصر الكبير في القاهرة، ويبدو أن المعز لدين الله كان شديد الحرص على ألَّا يعهد إلى تميم بأي عمل من الأعمال، ولا ندري سبب ذلك؟ فعندما دخل القرامطة الأراضي المصرية سنة ٣٦٣ هـ كان قائد جيوش الفاطميين الأمير عبد الله، وظلَّ تميم بمعزل عن كل عمل سياسي، بل يظهر أنه أهمل اهمالاً شديداً وقد كان هذا الجحود والنكران سبباً لانصرافه إلى اللهو والشعر، ولما مات ولي العهد الأمير عبد الله سنة ٣٦٤ هـ رثاه تميم بقصيدة عصماء مطلعها:

كلُّ حيٍّ إلى الفناءِ يصيرُ والليالي تعِلّةٌ وغرورُ

تطلّع الناس في مصر إلى الأمير تميم مرة ثانية، وظنوا أنه سيكون ولياً للعهد، ولكن الامام المعز لدين الله صرفها عنه للمرة الثانية وجعلها في ابنه الثالث «العزيز»، وعندما توفي الامام المعز سنة ٣٦٥ هـ تولى الملك العزيز، فتيقن تميم أن الأمر خرج من يده للأبد، وخاصة بعد أن أنجب العزيز ولده الحاكم بأمر الله.

ويذهب ابن الأبار إلى أن المعز لم يولِّ تميماً بدعوى

أنه لم ينجب ولداً، ولكن الحقيقة أنه كان لتميم ولد يدعى علي وبه كان يكنى، والدليل أن أبا الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسي المتوفي سنة ٥٢٩ هـ أتى بوصف لقصر بناه الأمير علي بن تميم الفاطمي فقال:

لله مجلسك المنيف قبابه
بموطدٍ فوق السماك مؤسسَ
موفٍ على حبك المجرة تلتقي
فيه الجواري بالجواري الكنس
تتقابل الأنوار في جنباته
فالليل فيه كالنهار المشمس
فاطلع به قمراً إذا ما اطلعت
شمس الخدود عليك شمس الأكؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبةً
والأرض أجمع دون هذا المجلس

إذن نستطيع أن نؤكد أن هذا الاحتمال جاء ضعيفاً وليس هو السبب في حرمان تميم من الخلافة أجل... استسلم تميم إلى حكم الأقدار التي حرمته من الملك، وأبعدته عن الخلافة، فلم نسمع عنه بعد ذلك أنه دبَّر فتنة لزعزعة أخيه، أو ساهم بمؤآمرة على سلامة الدولة، أو قام بعملٍ بشتم منه خروجه على القوانين السائدة،

بل على العكس أظهر خضوعه وأعلن وفاءه وتأييده، مما جعل أخوه العزيز يهبه الهبات السخية، ويغدق عليه الأموال الطائلة. فقد ذكر أن الامام العزيز وهب له البستان المعروف (بالمعشوق) وعرف بعد ذلك باسم جنان الأمير تميم، وجعل له القصور المنيفة على ضفاف (بركة الحبش).

ويروي إبن الأبَّار أيضاً أن الامام العزيز تنزه مرة إلى بركة الحبش، فلما قرب من قصور أخيه سأل عن تميم، فخرج اليه راجلاً حافياً حتى لقيه، فسلَّم عليه بالخلافة وقال:

يا أمير المؤمنين قد وجبت على عبدك الضيافة قال نعم: ودخل معه إلى بستانه، وقد أمر بجنيبه من الجنائب التي كانت بين يديه وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره، فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهب عليه، فتعجب منه واستظرفه ودنا من شجرة فأخذ منها ليمونة واحدة وإذا مكتوب عليها:

«انا الليمون قد غُذيت عروقي
ببرد الماء في حرز حريز»

فجعلها في كمه وقال: هذه ضيافتي عندك...
وانصرف إلى قصره، فبعث العزيز إلى جعفر بن قرهب

صاحب بيت المال قائلاً: ما عندك من الدنانير ضرب هذه السنة؟ وكان العام بأوله، فأجابه: مائة وستون ألف فأمر بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزي وقال له: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعن بهذه على مؤنتكَ.

هكذا كانت صلة الأخ الخليفة الامام العزيز بأخيه الأكبر الأمير تميم... ولكن هذا الصفاء كانت تشوبه بعض الثغرات فيتسرب منها إلى سدون والوشاة ليقوموا بالوقيعة بين الخليفة وأخيه... وكم في ديوان تميم من مقاطع شعرية أرسلها إلى الخليفة وضمنها وصفاً لما يقوم به الوشاة الساعون بالشر وكم ذكَّر العزيز بالأخوة وبراءته مما يقول الوشاة وبالرغم من كل هذا فلم يسلم تميم من النجاة، والنفيِ خارج البلاد، وسنفرد لهذه الحوادث بحثاً خاصلاً مستقلاً.

فـلا يَتْهِمَنِّي الحـاسـدونَ ببغيهـم
فعــزيَ من عـزِّ العــزيــزُ مُـركب
امــام لـه من كــل نفس مُـــراقِبٌ
وفي كـل أرض عقـدُ عـزٍّ ومِقْنَبُ
محبته حتمٌ على كل مسلمٍ
وطاعته فرضٌ من الله موجبُ

كـأنَّ العـطايـا والمنـايـا نـوافِـلٌ
يجـود بها في حين يرضى ويغضبُ

وقال:

يـا أكـرم الخلق أخـلاقـاً ومحميـةً
وأشـرفَ النـاس أفعـالاً ومصـطنعـا
لا تسمـعِ البغيَ من واشٍ يـزيِّنـهُ
فـالبغيُ ليس بمحمـودٍ إذا سمعـا
أني وأنت كمـا قُـدَّ الشـراك فـلا
تقبل من الحاسدين الزورَ والخدعا

عاش تميم في مصر حياة لهو وترف، ووجد في البيئة المصرية من المنتزهات والديارات والأسباب ما وافق مزاجه وهواه، فأكثر من الخروج إلى «المختار» بجزيرة الروضة، وإلى دير القصير، ودير مرحنّا، وشارك المصريين في لهوهم وطربهم، وأكثر من الشرب والعبث والبذخ والتأنق في كل شيء، فكان يركب على عشاري في النيل ويتبعه أربعة زوارق مملوءةً بالفاكهة والطعام والشراب، فإذا كانت الليالي مقمرة، وإلَّا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً، وإذا مرَّ على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمر بإعادته وسألهم عمَّا عزَّ عليهم فيأمر لهم به. ويأمر بمن يغني لهم،

وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه فلا يزال على هذا الحال حتى تنقضي أيام الأعياد ويتفرق الناس.

وكان تميم كريماً يسرف في الكرم إلى حد السفه، مقبلاً على الشراب، محباً للسماع، مشاركاً أصحاب اللذة واللهو والقصف والمجون، وقد اتخذ لنفسه عدداً من الأصدقاء، ومن بينهم (بني الرمسّي) وهم أسرة من العلويين الحسينين التي أقامت دولة الزيدية في اليمن، ولا ندري كيف جاءت هذه الأسرة وسكنت مصر؟ وكان جد الأسرة أبو القاسم نقيب الطالبيين بمصر وأحد الذين حضروا عهد الأخشيد وكان شاعراً مجيداً وتوفي سنة **٣٥٢** هـ، وكان ولداه أبو محمد القاسم، وأبو إسماعيل ابراهيم من الشعراء أيضاً، وهذا الأخير كان من أصدقاء تميم الذين راسلوه، ولكن يتضح أن صلة الحسين بن إبراهيم كانت أمتن، فكانا يتهاديان ويتراسلان بالشعر، ويدعو أحدهما الآخر للقصف والشراب، وكان تميم أيضاً على صلة ببعض شعراء مصر في تلك الفترة أمثال: صالح بن شديد، وابن أبي العصام، وابن أبي الجوع، والروزباري وغيرهم... وأخيراً مات تميم سنة **٣٧٥** هـ وهو في سن الثامنة والثلاثين من عمره، ودفن في تربة الزعفران على مقربة من قبور آبائه وأجداده.

هذا كل ما نعرفه عن حياة تميم، وهذه هي أكثر النواحي التي جاء على ذكرها التاريخ، ولكنني أراها غير كافية للنقاد وللباحثين الذين يريدون دراسة هذا الشاعر دراسة أدبية موضوعية مفصلة.

ومهما يكن من أمر فلو أن الأقدار ساعدتنا على معرفة الأسباب التي أدت إلى إبعاد تميم عن كرسي ولاية عهد الخلافة الفاطمية، أو لو أننا علمنا هذا أو بعضه، أو أن الظروف خرجت عن تنكرها لنا، وهيأت لنا الأسباب للاطلاع على المزيد من المصادر والمعلومات عن الأمير تميم، وعن نشأته وطفولته، وعهد شبابه، وكيف كان يعيش في المغرب، إذن لاستطعنا أن نفيه حقه من الدراسة الصحيحة الكاملة، ولكن ما حيلتنا إذا كانت كتب الأدب والسير جاءت جميعها خالية من كل هذه الآثار، وعلى الأخص الفترة التي قضاها تميم في المغرب (شمال أفريقيا)، ولا بد من الاشارة إن وجود بعض المقاطع والنتف لا تفي بالغرض أو توصل إلى الهدف، فهل نصدق أن تميماً لم يقل الشعر في المغرب؟ وهو الشاعر الوجداني المطبوع بالفطرة؟ هذا بالاضافة إلى أن المدة التي عاشها في المغرب تربو على الخمسة والعشرين عاماً، وفي هذا العهد من الشباب تتفتح الأذهان ويطيب

التغني بالحب والشباب، وهل صحيح أن مهام ولاية العهد كانت تشغله عن نظم الشعر؟ ولكن من الثابت أن أخاه عبد الله وقعت عليه التسمية لولاية العهد وهو في المغرب، إذن فهذا الاحتمال لا يقرب إلى العقل لأن تميم لم يسم لولاية العهد مطلقاً، ولهذا لم يكن لديه ما يشغله عن قرض الشعر في المغرب، وهل من الممكن أن تكون المغرب على سعتها خالية من الجمال والمظاهر البديعة والخمرة والندمان، حتى تكمن شاعرية تميم في صدره فلا تتفتق إلاَّ في مصر؟ هذه جميعها افتراضات واحتمالات واستفهامات نطرحها على أنفسنا، ونحن نستعرض حياة تميم، ولكن يبدو أن الأفق الذي نستطلعه الأخبار يظهر أمامنا وهو متلبد بالغيوم، ويظهر أن الجواب على هذه الأسئلة سيظل في عالم الغيب.

في الواقع... إن تميم قال الشعر منذ الصغر، فهو شاعر مطبوع عاش في المغرب، والمغرب مليء بالظلال والندى والجمال، كما أن طبيعته رائعة جميلة لا تقل فتنة عن جو الأندلس البديع. وباعتقادي أن شؤون ولاية العهد لم تكن لتقف حائلاً بينه وبين الشعر الذي تغلغل في دمه وعروقه، فتميم بعد أن فشل في الجولة الأولى صرف فكره عن ولاية العهد وسار في

سبيل بعيد عن الخلافة وشؤونها، والدليل على ذلك أنه لم يقاتل لأجلها، ولم تبدر منه أية بادرة تنم عن رغبته فيها، كيف ذلك وهو من أنصار الحرية الشخصية والانطلاق. ولا يرغب أن يقيد نفسه بقيود الخلافة الثقيلة، ويحمل على كتفه الأعباء التي تنوء بحملها الجبال، مما يحرمه من لذائذ الحياة وأفراحها وجمالها.

كل هذه أسباب تجعلنا نقول ونحن مطمئنون بأن شعر تميم الذي نظمه في المغرب قد ضاع كما ضاع غيره من الآثار الاسماعيلية، ولا شك أنه لم يصل إلينا من شعره في مصر إلا القسم الضئيل التي احتفظت به مراكز الدعوة الاسماعيلية في سورية واليمن، وليس من المعقول أن تميم ولد في مصر شاعراً كاملاً على الصورة التي نراه بها، هذه ناحية ذات أهمية بالنسبة لدراستنا عن الأمير تميم، وهي بالحقيقة تشكل أثراً بارزاً في حياته الأدبية، فلو وصلت الينا على الأقل بعض مقاطع من شعره المغربي، أو لو عرفنا عنه المزيد من الأخبار، إذن لاستطعنا تكوين فكرة صحيحة عن نشأته وحياته وشبابه ومغامراته، ولكن كل هذا جاء غامضاً أشد الغموض كما قلنا، ونحن نستغرب أيضاً كيف أن شعر ابن هانيء الأندلسي ويعتبر شاعر

الفاطميين بلا منازع لم يفقد منه شيء بالرغم مما فيه من المديح والمغالاة والعواطف الجامحة والحب العقائدي للفاطميين؟ بينما يفقد شعر تميم بن الامام المعز وهو الشاعر الوجداني الرقيق الذي عبر تعبيراً صادقاً عن النواحي الحياتية والواقعية التي ليس فيها أي أثر للمغالاة من هذه الزاوية نقول: لعل هناك أسباباً أخرى لم يتوصل أحد من الباحثين إلى معرفتها؟ ويخطر ببالي استنتاج جديد لم يدر في خلد أحد من المهتمين بالأدب الفاطمي، واعتقد أنه السبب الأول في إبعاد تميم عن مركز الخلافة، وفي ضياع شعره في المغرب... هناك قصة زواج الامام المعز لدين الله من امرأة مغربية من عامة الشعب وهي التي ولدت تميماً ثم ماتت بعد ذلك فتزوج المعز بثانية وكانت من الأسرة الفاطمية، وقد أنجبت له عبد الله والعزيز وعقيل، فهل هذا من جهة ومن جهة ثانية نلاحظ أن في ديوانه بعض القصائد التي مدح بها والده «الامام المعز لدين الله» فهل اقتصر مدح تميم هذا لوالده عندما كان في القاهرة؟ ولماذا لم يمدحه عندما كان في المغرب؟.

وفي نهاية المطاف لا بد من القول بأن قصة تميم في المغرب تشكل أسطورة مغلقة غير عادية فهي جديرة

بأن تنال من الاهتمام واعتقد أن وراءها أسباباً أخرى، وهذا كله جعل حياة تميم في المغرب غامضة ومستورة وراء ستار كثيف من الكتمان، فنحن لا ندري متى فكَّر الامام المعز بنزع صفة ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم؟ ولماذا خرج عن التقليد الفاطمي المتبع بتولية الابن الأكبر؟ وهل كان هناك ضغط عائلي من الأسرة الفاطمية يقضي بإبعاد تميم عن الخلافة لأن أمه غير فاطمية؟ كل هذا يثير في النفس موجة من التساؤل والاستغراب، ولكن التاريخ يقول أن الأسباب لا تخرج عن كونها تدابير اقتضتها حياة تميم الخاصة وانجرافه في تيار الخمرة والمجون والخروج على آداب الدين والتقاليد في بلد محافظ يعتبر قاعدة العالم الاسلامي.

أمَّا ضياع شعره في المغرب فلا يمكن أن تلصق بالفاطميين أنفسهم وهم الذين عرفنا عنهم تشجيعهم للأدباء والشعراء وقرضهم الشعر، والتغني فيه بمجالسهم، وإغداقهم الأموال والهبات والهدايا على الشعراء المبرزين والأدباء المتفوقين.

يحدثنا صاحب سيرة جوزر وهو خادم الامام المعز بان الامام سمَّى ابنه عبد الله لولاية العهد قبل وفوده على مصر، وإن جوزر نفسه سلَّم على عبد الله بالامارة

وبولاية العهد وهو في المغرب، وقد عرف الناس أن الامارة صائرة إليه والمعروف عن عبد الله أيضاً أنه مات في القاهرة وهو يحمل رتبة ولاية العهد، فتولاها بعده العزيز أمَّا الأخ الأصغر الرابع «عقيل» فقد مات أيضاً في القاهرة وقد رثاه تميم بقصيدة مطلعها:

قسمةُ الموت قسمةٌ لا تجور　　كُل حيٍّ بكاسها مخمور
يستوي كل من تفاوت فيها　　لا أميرٌ يبقى ولا مأمور

أمَّا قصيدته في رثاء أخيه عبد الله الذي مات في القاهرة سنة ٣٦٤ هـ فتعطينا الدليل على أنه انصرف عن كل ما يمت إلى السياسة بصلة راضياً لنفسه بهذه الحرية التي تدينه من قمم الحياة الأدبية يعبَّ من معين الشعر ألواناً من الحب والفن والجمال.

ومن منَّا يلوم تميم على تلك الحياة الصاخبة النابعة من واقع الانسانية؟ وهل للشباب الجميل الريَّان الممتلىء صحة وشباباً وأدباً وشعراً إلَّا الانجراف وراء العاطفة والحب، وماذا على تميم أن يفعل ليذهب الهموم التي كرَّت عليه بجيوشها منذ أن كان صغيراً سوى القصف والطرب والصيد والشراب مع الندمان والخلَّان؟.

في الحقيقة أنه لشعور حزين يتسرب إلى شعاب

القلب فيملأه بالرحمة والشفقة، فتميم لم تنصفه الأقدار ولم تعطه حقه، أنه من الرعيل الذين جاءوا إلى الدنيا وفارقوها في سن مبكرة، فمدرسته الحياتية هي مدرسة الآلام والأحزان أو بلغة أصح مدرسة الوجدان الرقيق والشعور والابداع ولنسمع إليه يقول:

يـا من تعجَّب من مشيبي عـاجـلاً
نكـدُ الـزمـان يُشيب كـل أديب

مـا شبت من كبـر ولا من لـوعـةٍ
لكن لوشــك نــوىً وفقـد حبيب

ويقول:

يــا دهـــر لـم يـشــتــدُّ حــربُــك
ويــكــرُّ بــالــنــكـبـات خــطبُـك

مـــا بـــالَ جــورك لا يغر
ق ولا يــلـيــن عــلـيَّ قــلبُـك

ويقول:

إن الأمـور إذا اشتـدَّت معـاقـدهـا
يفـرِّج الله منـهـا كـل مـا وردا

كـذلك الـدهر إن جـاءت فـوادحُـه
في اليوم فارجُ لهـا ألَّا تدوم غـدا

ويقول:

يا دهر ما أقساك من متلونٍ
في حالتيك وما أقلّك منصفا
أتروح للنكس الجهولِ مساعداً
وعلى اللبيب الحرِّ سيفاً مُرهفَا

ويقول:

زمانٌ كريعان الشبيبة ناضرُ
وعيش كما آب الحبيب المسافر
تقضّى بما فيه واعقب بعده
زمان بأنواع المكاره ماطِر
ومن لؤمه إن فاز فيه أصاغر
بنيل معاليه ومات الأكابر
كأنَّ نصيب الحر منه مغيَّبٌ
وحظُّ الوضيع الساقط النذل حاضر

ويقول:

إلى كم تهدم الأحداث ركني
وترميني بجورٍ واعتداءِ
يعاقبني الزمان بغير ذنب
وتخذلني يدي وذوو اصطفائي

ويسعى بي لمن لـو جـاء سـاعٍ
به عنـدي لخُضَّبَ بـالـدمـاءِ

حيـاتـي بيـن واشٍ أو حسـودٍ
وسـاعٍ بـي يُسَـرُّ بـطـول دائـي

أجل... جاء تميم إلى الدنيا على جناح صبا رقَّت ولانت، فما هبَّت يوماً إلَّا هفافة ناعمة، ولادخلت بستاناً إلَّا رفَّافة عذبة... لقد حمل الروح الزكية اللطيفة فكان هفيفاً يحي الخاطر، ويمسح عن الجبين الآم الدنيا وأحـزانهـا.. كـان اللطف والكمـال ونقـاوة القلب والضمير، ودخل إلى محراب الشعر فأخرج الخلجات وأثار الخفيَّات، وارتاد الطبيعة الرائعة فأرسل الصلوات الخاشعة والتراتيل العذبة التي سبَّحت للعظمة والابداع وللجمال، أنه لم يدع اليأس يتسرب إلى قلبه بالرغم من حزنه الطويل وألمه الممض والحيلولة دون الوصول إلى أماله وأمانيه، وجلس على أريكة الزعامة الشعرية فكان قصره محراب الشعر وسوق عكاظ يلتقي على سلافته الندمان ويتبارى على بساطه الشعراء، وأهدى تميم إلى مصر روحه ووجدانه، وتغنَّى بأماكنها، وحباها كل ما وهبه الله من قدرة ونبوغ، وطاب له الترنيم حينما تكون أكمام الرياح محملة بفتات المسك وعناقيد اللؤلؤ

الأبيض في أعناق النسرين، وبراعم الورد الأحمر في رؤوس الأغصان والأفنان، وحيثما يكون في كل مكان عاشق ثمل إلى جوار معشوق ولهان، وفي كل خميلة حبيب يسعد برؤية حبيبه، والقمر شاهد على المناجاة، وحينما تتجاوب الخمائل بأنغام الأعواد والمغنين، وصخب السقاة المخمورين وقبل العشاق والمحبين، فلا عجب أن ينشأ نبيل النفس قوي الشعور محباً للجمال رقيق الطبع صافي الخاطر سليم الذوق، وقد نرى في روحه الصفة المصرية، والذوق الأندلسي الشعري الساحر الذي صبغ شعره بلونه الجذاب، وديباجته الرائعة، وموسيقاه الشجية التي تهز المشاعر، وتحرك الخواطر، ونرى أيضاً في شعره جلباباً نسجه البيان الأندلسي الرقيق، ودبجه خيال قرطبة وأشبيلية وغيرهما من المدن الأندلسية التي نقشت فيها الطبيعة أبدع صورها وألوانها.

وغبَّ من الليل ما شاء كأنه راهب يجلس أمام شاطيء النيل الهادي في ساعات الدغشة المتلألئة يحضن منها جمالات ليضعها على لوحاته الخالدة:

أما ترى حركات الريح مخبرةً
ان الغمام يصوبُ الأرض بالمطر

فالجو ملتحفٌ بُسطاً مفوَّفةً
كأنهن اختلاف الوشي والحبر

كأنَّ برد نسيم الغيم حين بدا
برد ارتشافٍ حبيبٍ زار في السحر

وكانت النجوم أمامه ترمي شعاعاتها ورشرشاتها من الأزرق حفنة، ومن الأخضر حفنات، عندما يكسو الضباب شاطيء النهر كالغلالة الشفافة، وحينما يهب النسيم العليل ليداعب الورود النابتة على الماء هامساً في آذانها أغاني الحب والشوق والجمال.

أذكرني النسرينُ لما أتى
ريحَ حبيبٍ لي أطال الصدود

كأنما قبَّلت من نشره
بيضَ الثنايا واحمرار الخدود

ما أجود النسرين لكنَّه
ذكرني منتزحاً لا يجود

على أن الحياة كثيرا ما تصب الأحزان والحرمان، وهي عناصر أثيمة تألبَّت على الكثير من الموهوبين فصهرتهم صهراً، وضحت بهم لتغنم نورهم المتوهج المنبعث من الطبيعة الأزلية الخالدة.

قد اجتمع البستان والروض والخمر
وحُــرِكْت الأوتـارُ وارتفــع الـزمــرَ
فمـالك لا تغـدو إلى الراحِ غـدوة
يبيحك فيها كـل ما تشتهي السكـر
هــل الـعيش إلاَّ قينــةٌ ومــدامــة
وسـاق مليـحٍ ليس يُعص لـه أمـرُ

إنسانية رفيعة، وتربية سامية، وأناقة أصيلة، ومجد تليد، وأصل عريق، ووجدانية ذاتية غنائية عاطفية... كان تميم فناناً مبدعاً محلقاً، ومات بعد أن ترك للأجيال بعده الأنغام العاطفية الرقيقة والحب المضمخ بالعبير.

# أخباره

تكاد تكون شخصية شاعرنا الأمير تميم الفاطمي مجهولة في عالم الأدب، وغير واضحة وجلية في دولة البيان، فهي تبدو مثخنة بجراح النكران والانعزال والنسيان كرفاقها من الشعراء الأمراء، وقد نلمح أن كتب الأدب على اختلاف مناهجها جاءت خالية من ذكره، وهكذا يمكننا القول عن أكثر شعراء العصر الفاطمي.

وعند الحديث عن هذا الموضوع لا بد لنا من العودة مرغمين إلى النغمة التي سبق لنا أن رددناها أكثر من مرة وأصبح ذكرها يخدش الاسماع، وهو أن هذا الاغفال لم يأت عفواً بل جاء مقصوداً ومفتعلاً، لأن كل أدب ينبع من الفاطمية كان غير مرغوب فيه أو بلغة أصح محكوماً عليه بالاغفال والنكران، وإذا كان لنا ما نقوله الآن فهو أننا أصبحنا في عصر اندثرت فيه التمييزات بين الفرق وانعدمت الفوارق بين الشعوب، أنه عصر الحريات

الانسانية الكاملة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، أو قل عصر الحرية الفكرية، والانعتاق من أسوار التعصب الذميم، ورواسب السنين، لهذا فسيبرز تميم على مسرح الأدب العربي كشاعر من الشعراء الأمراء الكبار، وسيصول بفخرٍ واعتزاز على مسرح الشعر، وسنظهر جواهره الثمينة، وآياته الشعرية الرائعة التي تغذي العقل والفكر والوجدان.

عندما يصل الناقد إلى هذا الحد لا بد له من التساؤل: من هو أجدر من تميم بلقب الامارة؟ أقولها للمرة الثانية، اليس هو الشاب الأنيق الوسيم الذي نال القسط الأوفر من الأدب والثقافة؟ اليس هو الشاب الذي يطفح عاطفة وفتوة وشجاعة؟ لقد كان البلاط الفاطمي يزخر بالكثيرين من الشعراء، ولكننا نراهم دون تميم في الشاعرية والمكانة، فبعد موت ابن هانيء الأندلسي خلا له الجو ليتبوأ مكان الصدارة في دولة الشعر، وليصبح أمير الشعراء المصريين دون منازع.

أجل من حقنا أن نتساءل: أليس هو تميم بن الامام المعز لدين الله الفاطمي الخليفة الحصيف الذي ينحدر من أعرق وأشرف أسرة عرفتها العرب؟ أليس هو النجل الأكبر لأحبرحليفة في العالم الاسلامي وقد وصل بفتوحاته

إلى حد أن أعلام دولته رفرفت على بلاد المغرب ومصر وسوريا وفلسطين واليمن والحجاز، وقد استطاع أسطول دولته أن يمخر عباب الأطلسي، وأن يسيطر على شواطىء روما وأسبانيا.

أنا ابن المعز سليل العلا وصنو العزيز إمام الهوى
سما بي معد إلى غايةٍ من المجد ما فوقها مرتقى
فرحتُ بها فاطمي النجار حُسينية علوي الجنى

وقال:

بعزٍّ يسدُّ الخافقين ودولةٍ
لها فوق اعناق السماء صعودُ
لئن خصَّني منها الاله بحظوةٍ
لقد عمَّ منها العالمين سعود
وللناس آمالٌ ضروب وانفسٌ
تسوق إلى أوطارهم وتقودُ

وقال:

رأيت معداً كالحسين وإنما
يطول على المولود أن أنجب الجدُّ
تغرَّب فهماً مثلما ذاب رقةً
وظرفاً فما في كنه وصفٍ له حد

بـه يشتفي السمعُ الأصم بلفـظة
وتشفى بـرؤيا وجهـه الأعين الرمـد
ولـولا احتمـال النفس كــل مشقـةً
إذاً لتساوى في العلا الحـرُّ والعبد
كذا السيف لا تستخبر العين عتقـه
إذا لم تفـارقـه الخمـائـل والغمــد

ويقول:

إنَّ الـمـعـز الـمـلك الأغـرا
لـم يـبـق مـن بــذل نــداه حــرًّا
قــد ملك النـاس معـاً والــدهــرا
وإن غــدا أســنـى وأعــلى قــدرا
أن يملك العــالم أو ذا الـعـصــرا
كم طـال بالمجـد النجـوم الـزهـرا

ويقول:

أنــا ابنُ من قد أعـزَّ الدينَ منصله
وأذعنت لـعـــلاه العــرب والـعـجـم
أعني الامام معداً خيـر من حسنت
بــه الخـلافــة واستعلت بـه النسم
يـا مطلق الأمـل العـاني ومخـرجـه
لليُسر من بعد مـا أودى به العـدم

من لم يكن بك دون الناس معتصماً
أمسى وليس له في الأرض معتصم

ونعود ثانية لنقول: لماذا أغمض حق تميم في تاريخ الأدب العربي، ما دام هذا شأنه؟ ومن المؤسف أنه لولا أن تقوم نخبة من أهل الأدب في مصر فيتوفرون على تحقيق وطبع ديوانه إذن لظل في كهوف الاهمال والنسيان، ويقال أن طبع الديوان ارتدى طابعاً اقليمياً وتسمَّى بالشاعر المصري ومعنى ذلك أن الموضوع كان خدمة للأدب المصري أكثر ما هو خدمة للأدب الفاطمي.

إن هذا الموضوع يشكل ناحية دقيقة في حياة تميم الأدبية، ولا يخرج عن كونه عودة إلى بحث ضياع الأدب الفاطمي في عهد الأيوبيين وقد ذكرنا ما فعل هؤلاء بالتراث الفاطمي، هذا في مصر أمَّا في المغرب فإن ضياع شعر تميم يعتبر مأساة في تاريخ الأدب، ولا بد أن تكون هنالك أسباباً غامضة أشد الغموض، وستظل غامضة إلى ما لا نهاية.

والآن: لنتلفت صوب تميم وهو في المغرب يرفل بحلل الطفولة اليانعة والشباب الوريف، فبعض المصادر المخطوطة تذكر أن تميماً تربى في كنف والده الامام

المعز لدين الله في المغرب، وسهر عليه نخبة من المربين، وتولى تعليمه كبار المعلمين الذين كانوا ينتدبون لتثقيف أبناء الملوك والخلفاء في تلك العصور، وأنه كان يعيش كباقي أخوانه في القصور الملكية، فيخرج مع أبناء عمومته وأقربائه إلى المنتزهات والملاهي على ندرتها، وهنا يجدر بنا أن نتساءل بتعجب واستغراب: فمن أين تسربت إلى تميم وهو في تلك البيئة المحافظة هذه الأفكار التحريرية التي تتخطى العادات وتسحق التقاليد، ومن هو الذي غرس في أفكاره هذه الغرسة وهو في سن مبكرة فجعله ينشأ على حب الشعر والخمرة والصيد والمجون... إن كل هذا لم يرد ذكره في كتب الأدب، فهل معنى ذلك أن تميماً لم يجاهر بتلك الأفكار ويدعو اليها إلا حين استقراره بالقاهرة. وهل نستطيع أن نقول أن قلبه لم يتفتح للحب إلا في القاهرة، وإن شعوره وإحساسه لم يستيقظ إلَّا بعد وفوده على الديار المصرية؟ ولكن تميم كان شاعراً بالفطرة خلق والشعر بيوم واحد، فليس من المعقول أن لا يقول الشعر إلَّا بعد أن تخطى الخامسة والعشرين من العمر، ورأي أن لتميم من القصائد المغربية ما يعادل كل ما قاله في مصر.

ومهما يكن من أمر فنحن امام شعر تميم

المصري، وعندما ننظر إلى هذا الشعر نرى أنه تغلب عليه الديباجة والرقة الأندلسية، وتكتنفه الصور المغربية، فالسلاسة والسهولة والتشبيهات والموسيقى العذبة كلها ظهرت بقوافيه وماجت في مقاطعه الشعرية، وفي هذا الدليل القاطع على أن هذه الصور متأصلة في فكره ونامية في وجدانه منذ أن كان في المغرب، وفي المغرب قضى تميم أحلى ساعات الصبا والشباب وذاق رحيق الحب المبكر، والتطلع نحو الحياة الرغيدة ويتجلى كل هذا في مغامراته الجريئة في بيئة محافظة وهي التي آلت إلى إبعاده عن الخلافة. والآن ما دمنا وصلنا إلى هذا الحد من حياة تميم الخاصة والعامة، فإنه أصبح علينا أن لا ندع باباً إلا ونطرقه، ولا نافذة إلّا ونطلُّ منها، ولا بد أخيراً من الاهتداء إلى الأسباب، والوقوف على حياة هذا الشاعر الوجداني من جميع نواحيها وأطرافها.

قلنا: في الصفحات الأولى ان والدة تميم كانت غير فاطمية، فهي من أسرة متوسطة الحال يكاد يكون نفوذها محدوداً في المغرب، فهي ليست على جانب كبير من الجاه والثراء، وكان الامام المعز قد تزوجها لجمالها، فولدت تميم ثم ماتت بعد أيام من ولادته،

ومن الطبيعي بعد موتها أن يعهد الامام المعز إلى المربيات أمر إرضاع تميم وتربيته فهل نستطيع أن نقول أن هذه التربية أثرت بالشاعر، وجعلته غير مستقر في حياته، يشذُّ عن المجتمع، ويتبرم بالناس، وتغلب عليه صفة الحزن والأسى. وكم هو مؤسف أن يحرم تميم وهو في سن الطفولة من عاطفة الأمومة ومن هديها وحنانها بل من ينبوع سخي كان يتدفق عليه بالعاطفة والحنان والمحبة. ويقيني أن هذا كان من الأسباب التي قيدت تميم وجعلته أعزل من أمضى سلاح، فنفوذه بعد هذا المصاب أصبح محدوداً لدى والده وأعمامه ورجال القصر، ولا سيما بعد أن تزوَّج الامام المعز ثانية فتاة من الأسرة الفاطمية وأنجبت له ثلاثة أولاد. من هذه الزاوية نستطيع أن ننفذ إلى واقع حياة تميم ونكوّن عنه فكرة خروجه على المجتمع ونقمته على الأقدار التي حرمته أمه، وابتعاده عن المجالس والمجتمعات التي كان يراها فاسدة ومتآمرة عليه. وإيثاره الخمرة يسلي بها همومه ويبعد أحزانه، واصطفائه بعض الأصدقاء يرافقهم ويشكو لهم آلامه وأحزانه، وزاد في نقمته المؤآمرة التي دبرت في الخفاء من قبل الأسرة الفاطمية الحاكمة لابعاده عن الخلافة التي هو وريثها الشرعي حسب القوانين المعمول بها، ثم اتهامه بتهم هو براء منها.

وأنّى لتميم أن يقاوم تلك القوى التي تألبت عليه، وهو في الساحة وحيدٍ أعزلٍ من السلاح؟ وأعداؤه جماعة أقوياء من ذوي النفوذ والجاه، فلديهم الأعوان والأنصار في البلاد وفي جميع أنحاء الدولة. أما والده... وكأني به سكت على مضض ورضخ لحكم الأكثرية، وآثر التضحية بتميم في سبيل الحفاظ على وحدة الصف والانسجام، كل هذه أسباب أراها صحيحة وواقعية، وقد فعلت فعلها، وأدت في نهاية المطاف إلى عزله عن ولاية العهد، بعد أن كان مقرراً ومعروفاً لدى الخاص والعام بأن تميم هو الخليفة المرتقب بعد والده.

ومهما يكن من أمر، فنحن علينا أن لا نمر مرور الكرام بالأحداث التي تعرض لها تميم وهو في مطلع شبابه، وعلينا أيضاً أن نسجل اخلاق الشاعر ونتغنى بمآثره وطيبه، فاننا لم نسمع عنه أن أعلن معارضته للتدابير القاسية التي اتخذت ضده بل على العكس نراه يرضخ للارادة العليا وينحني أمامها راضياً بالأمر الواقع وفي هذا تتجلى عاطفته الرقيقة وعقله الراجح وتفكيره السليم، أجل... لقد رضي بحكم القدر وحافظ على وحدة الصف في الأسره، وتلفت ناحية الشعر ومراده أن يجلس على عرش هذا الملك الواسع بعد أن رأى في مقدوره إيفاءه حقه، وبعد أن وجد فى نفسه الكفاءة

والمقومات والأهليـة، وليس هناك أوفى من تميم في مبادراته وخضوعه لسلطان الامامة الفـاطمية وانضـوائه تحت لوائها، فهو قد استظل في القاهرة بظل أخيـه الامام العزيز وهو أصغر منه، فكان يسلِّم عليه بالخلافة كأي فِرد من أفراد الدولة، ويمدحه المدائح الكبيرة. فلا نشعر عند قراءتها إلاَّ أنها صادرة عن شاعر غريب جاء يمدح الخليفة طمعاً في منصب أو جاه أو مال... فهي بالحقيقة ليست مدائح أخ أكبر إلى أخ أصغر...

أجـل... اننـا لم نـلاحظ أن تميم تعـرض في قصائده لشؤون الخلافة، أو حـاول مرة نقـد أساليب الحكم المتبعة في الدولة، كان مبدؤه يقوم على النسيان والاستسلام لسلطان الشعر ينسى فيه همومـه وأحزانـه ويروح عن نفسه في المنتزهات والنوادي، ولعله وجد بعض العزاء، وعوَّض بها عن الجحود والنكران.

رضيتُ بحكـم ســابقــةِ الـقضـــاء
وإن أضحت تُكــدِّر صفَــو مــائي
وهــل يستـطيـع أهـل الأرض حــلاًّ
لـعقــدٍ شُــدَّ مــن فـــوق السـمــاء
إلى كم تـهــدم الأحــداث ركنـي
وتــرمــيـنــي بجــورٍ واعــتــداء؟

يعـاقبني الـزمـان بغيـر ذنبٍ
وتخـذلني يـدي وذوو اصـطفائي

ويقول:

ولـكن سَـمتْ بـي همـة عـلويـةٌ
وقلبٌ إذا ارتـاع الجبـانُ جسـور
ونفسٌ سـواء عنـدهـا الفقـر والغنى
وسيَّـان بـؤسٌ نـالـهـا وحبـور

ويقول:

يا دهر ما بال جبري فيك منكسراً
أعمى لـديك وكسـري غيـر منجبـر
شاخ الزمـان زمان السـوءِ واكتهلت
أيـامـه فـاعتـرتـه غفلة الكبـر
فصـار أعجـز من ميت وأبعـد من
فـوت وأصمت من عـودٍ بـلا وتـر
وكـان أوثب من ليثٍ عـلى نَعَـمٍ
فينـا وأشـره من أنثى بـلا ذكـر

عاش تميم في مصر حياة شاعرية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وقد وفر له الامام العزيز كل أسباب الرفاهية وما تتطلبه حيـاته الصـاخبة، فـوهبه القصـور

والحدائق والبساتين، وخصص لـه الرواتب والهـدايا، وكل هذا ليبقى بعيداً عن الأحداث السياسية، ولهذا نراه ينصرف انصرافاً كلياً إلى الشعر، ويوجه اهتمامه إلى مجالس الخمرة والندمان والخلان الأصفياء يقضي أوقاته معهم، صارفاً الليالي الجميلة مغنياً شادياً، مسرفاً بالشراب، والانفـاق على الرفـاق، وكم من مرة طلع الصباح وهو على هذا الحال:

رُبَّ لـيـلٍ وصلتـه بـصـبـوحٍ
وصـبـاحٍ وصـلتـه بـغـبـوق

ونعيـمٍ جـذبتُ طيب التصـابـي
فيـه جـذب الصـدود للمعشـوق

وكـؤوس المـدام تـحمـل منـهـا
نسيم المسـك في لميـع البـروق

لا أحـبُّ الـحـيـاة إلا لأمـر
ين مـدى اللهوِ أو قضـاء الحقـوق

مرة أخرى ونحن في رحاب تميم نتساءل: ماذا كان على تميم أن يفعـل وهو في مصـر، بعد أن خسـر المعركة وذاق مرارة الحرمان والنكران؟ ماذا عليه أن يفعل ولم يبق له الدهر ما يعزي به نفسه إلَّا كأساً يفرغه

في جوفه ولحناً يسمعه بأذنه، ومنظراً يكحل به ناظره؟ ماذا عليه أن يفعل وليس حوله إلَّا بعض الأصدقاء الذين لا حول لهم ولا طول مهمتهم التجمع حوله على مائدة الشراب وتهيئة أسباب الفرح والسرور، وحفظ الوداد له في قلوبهم؟ ماذا عليه أن يفعل وهو الأمير الشاب الوسيم الذي فاق اخوته وأفراد أسرته ذكاءً ومعرفة؟ أيترك الدنيا وملذاتها وأطايبها ورياضها ومناظرها ويفيء إلى كهوف التعبد والزهد والتقشف والعبادة والابتهال، ولكنه لم يخلق لكل هذا... أنه ما زال في مقتبل العمر لم يعب من ملذات الدنيا إلَّا قليلها، ولم يقطف من ثمرات الحب إلَّا أندرها، وكيف يستطيع أن يزجر نفسه ويوجهها غير الوجهة التي خلقت لها... وجهة الجمال والفن والخير.

ألَّا بئساً للحياة إذا ما وصلت إلى هذا الحد من التحول والابتعاد عن الواقع، وتباً لها إذا ما خرجت عن واقعها الأصيل وابتعدت عن قواعد القيم والمثالية ومنابت الأخلاق... وما يدرينا ما سوف يفعل تميم لو أن الأقدار أوصلته إلى مقعد الخلافة، أصحيح أن الدولة كانت ستتعرض إلى الانهيار؟ وما هو ذنب تميم في أمر لم يتم؟ باعتقادي أن تميم لم يصل إلى مرتبة العبقرية

والخلود إلاَّ لأن أمه غريبة عن الأسرة الفاطمية، ولا يتسرب إليَّ الشك مطلقاً بأنه كان مدين اليها بالعبقرية والنبوغ، فالأم كانت ولـم تزل السبب الأكبر في تكوين الانسان وتدرجه في مراقي الحياة. والآن: وبعد مرور ما يقارب الألف عام نتساءل: ماذا ضرَّ تميم في إبعاده عن مركز الخلافة؟ وهل كان رابحاً أم خاسراً؟.

أرى أن خلود تميم في دولة الأدب لا يعادله خلود أخيه في دولة السياسة والملك، وباعتقادي بأن الحياة التي عاشها بالرغم من قصرها كـانت ناعمـة وهادئـة وترفرف عليها راحة الضمير وهدوء البال، بعكس حياة أخيه التي قضاها في الحروب ومشاغل الحكم وتحملٍ المسؤوليات الجسام، ولا بد لنا هنا من الوقوف قليلاً أمام مسألة لا تزال غامضة في حياة تميم وأعني بها إبعاده عن القاهرة مرتين في عهد خلافة أخيه الامام العزيز، مرة إلى الرملة، ومرة إلى عين شمس، وفي كل مرة كان يصدر الخليفة عفواً خاصاً عنه فيعود من منفاه إلى القاهرة.

أجل... إن تاريخ حياة تميم جاءت خالية كعادتها من الأسباب التي دفعت الامام العزيز إلى اتخاذ مثل هذا الاجراء الشديد، فهل كان ذلك بفعل وشاية، أم

أن تميم مارس نشاطاً ضد الحكم القائم؟ كل هذا جاء غامضاً أشد الغموض، ونحن علينا أن نضيفه إلى تاريخ تميم الغامض أيضاً.

ولكن الذي يثير في النفس الشكوك ما نطالعه في بعض أشعاره من الشكوى والألم لما تعرض إليه من النفي والبعد، ونرى أنه كثيراً ما استعطف أخاه وذكره بصلة الأخوة ورابطة الدم، وهناك أيضاً التحذير من الوشاة الذين سعوا ويسعون للوقيعة، وما أرق قوله لبعض أصحابه وقد أرسلها من المنفى:

تغيَّر بعدكم حالي ... وساءَ لبعدكم بالي
ولا والله ما قلبي ... لكم ناسٍ ولا قالي
وددت لو أنكم تدرو ... نَ أشواقي وبلبالي
ودمعي عند ذكراكم ... وإطراقي وإذلالي
فهل تلقون ما ألقا ... ه من وجدٍ وإعوال

وكتب إلى أهله من الرملة:

أنتمُ في المنام حلمي وأنتم ... في انتباهي سؤلي وأنتم مرادي
كل عضوٍ فيَّ اليكم مشوقٌ ... زائد توقه على الابعاد

لـم أفــارقـكـمُ ولـكـنَّ جـســمـي
بــان عنكم وحــلَّ فيـكم فــوآدي

وكتب أيضاً إلى أهله من الرملة:

الجسمُ ينقصُ مـذ فـارقتكم سقمـاً
والشــوق يكثــر في قلبي ويــزدادُ
لا تحسبــوا أنني للهــو بـعــدكم
أحــنُّ أو لـلذيــذ الـعـيش أقـتــاد
قـد غرَّنـي فيكم صبــري وفـارقني
تجلدي فــالأسى لي بـعــدكم زادُ
كــأنني والـه قــد شــردت فنـأت
كـرهاً وأمسى لهـا في الحي أولاد

وكتب إلى أخيه الامام العزيز:

إذا حــانَ من شمس النهار غـروبُ
تــذكّــر مشتــاق وحــنَّ غــريـب
ألا أبلغـا القصـرين فــالمقس أنني
الـيـهـنَّ مـذ فــارقـتـهـنَّ كئـيـب
إلى ساحتي دير القصيـر إلى الربـا
فمصــرهمـا حيث الحيــاة تــطيب

منازل لم يُلبَس بها العيش شاحباً
ولم تُلفَ فيهنَّ الخطوب تنوب
وإني لأهوى الريحَ من كل ما بدا
بريَّاٍ ومن ريح الشمال هبوبُ
فكيف يبلغ شأوي أو يطاولني
وأنت لي دونه كالصارم الذكر
أنصرُ أخاك فان القوم قد نصروا
غلمانهم وأسمُ في تأخير منتصرِ
فأنت ما زلت لي يُسراً بلا عسرٍ
ومورداً صافياً عذباً بلا كدر

وهنا يقرض بالوشاة:

يا أكرم الخلق أخلاقاً ومحمية
وأشرف الناس أفعالاً ومصطنعا
لا تسمع البغي من واشٍ يزيِّنه
فالبغي ليس بمحمودٍ إذا سمعا
إني وأنت كما قُدَّ الشراك فلا
تقبل من الحاسدين الزورَ والخدعا

ونراه هنا يذكر الهبات والهدايا التي كان يغدقها عليه أخوه الامام العزيز:

بعثتُ بمدحي قبل كل هديةٍ
لأني له دون الهدية مالكُ
ولا شيء غير المدح يبقى لأنه
مقيمٌ جديدٌ والهدايا هوالك
ولو كنت أحوي ما على الأرض كله
بعثتُ به لطفاً وما أنا آفك
ولكنه لمَّا مضى المال وانقضى
بعثتُ بودٍ ماله عنك فاركُ
قوافٍ بواكٍ إن عداك بديعها
وان يممت علياك فهي ضواحك

وما أرقه حين يشكو حاله لأخيه:

أيا ابن معز الدين والفضل كله
اليك انتهى دون الأعارب والعجم
إذا كنت أنت الحاكم المرتضى به
فما لك تغدو دون حكمك لي خصمي
أجزني على مقدار ما أنا محسن
ولا تعطني ما ليس يبلغه سهمي
فكم من محب راح باللحظ قانعاً
إذا راح ممنوعاً من الضمِّ واللثمِ

أقف هنا لأقول: بأن تميم كان يتذوق الحياة بقلب ظاميء إلى لذاتها، فهو مقيد بقيود الفضيلة فيها، ولكنه كان عرضة لتغلب العاطفة على عقله بحيث تظهره في صورة الجامح الذي لا يرده عن غايته شيء... إن داعي الشباب كان يتفاعل في نفسه وعندما يشعر به يمسح به الآم الحياة وأشجانها... عاش تميم في بيت الملك، وفي ظلال الترف والنعيم، وشاهد ما لم يشاهده أي انسان من ألوان الحياة في القاهرة المغرية، فالقاهرة كانت تموج بألوان النعيم واللهو، فمن قيان وندامى ومغنين، ومن مجالس راح فيها الجواري التي ضربت الرقم القياسي بالملاحة والسحر والذوق والجمال، إلى غلمان وسقاة برزت عليهم إشارات الظرف والجمال، فكيف لا تضطرم عواطف تميم الشابة وتتأجج في صدره؟ وهو العبقري الذي أوتي كل المقومات والشعور والاحساس، فمن هنا أبدع بالغناء والانشاد وتلحين الألحان وشرب الراح، ووصف مجالس الشراب، والندامى، كما أنه حلّق في أجواء الحب ولذاته وخلاعته ولهوه ومجونه.

وما بلدُ الانسان إلاَّ الذي له
به سكن يشتاقه وحبيبُ

إلى الله أشكو وشكَ بينٍ وفرقةٍ
لها بين أثناء القلوب ندوبُ

هذه المقاطع الشعرية الرقيقة جاءت زاخرة بألم البعاد والفراق ومرارة النفي والغربة والشوق إلى الأهل والوطن والأصحاب، ولكن كل هذا لا يروي الغليل، فنحن نريد أن نعرف أسباب النفي، وعدد الأيام التي قضاها في الرملة وعين شمس ومتى كان ذلك النفي؟ ونعود ثانية لنسمع خلجات قلب تميم وعاطفته وآلامه عندما يبعث من عين شمس إلى أصحابه فيقول:

ما زال في الحب شوق موجع وأسى
مترحٌ يقطع الأحشاء والكبدا
حتى رمى البين بالتفريق الفتنا
وحلَّ من وصلها ما كان قد عُقدا
فآهِ من لوعةٍ مشبوبةٍ وجوى
في الصدر لم تبقِ لي صبراً ولا جلدا

وقال يوم الرحيل:

حدا الفراق فمهلاً أيها الحادي
لا شيء أوجع من بينٍ وإبعادِ
استودع الله من فقدي لرؤيتهم
أمرّ من فقد شرب الماء للصادي

لـولا دمـوعي في يـــوم الـوداع إذاً
لأحـــرقـت زفــراتـي ثـــم عُـــوآدي
فـــان قضى بـالتـــلاقي الله ثـانيـةً
فـالشكـر أعـظم مـا صيَّـرتـه زادي

هذا الشعور بالألم، وذلك الإحساس باللوعة كلها عوامل فجرّت الينابيع الشعرية الراكدة في أعماق تميم وأحالتها إلى أنغام عاطفية رقيقة، وإلى ألحان عذبـة فياضة تُسكر الروح وتخدر المشاعر، والذي نلاحظه أنه سواء أكانت الدوافع لابعاده عن القاهرة سياسيـة، أم عائلية، وسواء أكان ذلك خوفاً على الملك، فان تميم وقع تحت حكم الوشاة والرقباء فكانوا يحصون عليـه حركاته وسكناته، ويرافقونه إلى كل مكان ليلتقطوا منه حبة فينقلونها إلى أخيه قبة طمعاً في نيل جاه أو عطاء، ولعلَّ تميم شعر بكل هذا، فكان يكثر من المـدائح لأخيه بمناسبة أو غير مناسبة وغايته تغطية تلك المزاعم، ودحض أقوال السعاة والوشاة، ومن جهة أخرى كان همه أن يجعل الاطمئنـان في قلب أخيه، فهـو كان بحاجة إلى العطاء... بحاجة إلى المال ليغطي نفقاته الكثيـرة... فهناك قصـره وعبيـده وبسـاتينـه ورفـاقـه وندمانه... هناك نظرة الناس إليه بأنه أمير الشعراء وابن

الامام المعز وأخ الخليفة العزيـز، وكل هـذا يتطلب المزيد من النفقات والأموال، وإذا لم تأتِ هذه الأموال من لدن أخيه، فمن أين سيأتي بها تميم؟ ولنستمع إليه يقول له:

إنّـــا جميعـاً تشـــاركنـا دمـــاً وأبـــاً
كمـــا تشـاركت الأغصـــان بـالثمـــر

# الغزل في شعره

كان الغزل ولـم يزل من بواكير الفكر البشري، أو من انتـاج العقـل المفـطور على النبـوغ والعبقـريـة، والابداع. فهو المعبر عن عاطفة الحب المتأصلة في نفس الانسان تأصل الغريزة الجنسية التي هي منهـا كالأساس من البنيان.

والغزل متنوع في طبيعته، مختلف في اتجاهه، فهو خاضع لنوعية الحب الذي يتضوع منه ويترجم عنه، كما أن الحب ذاته خاضع في تحديد طبيعته وتكوينها للبيئة الطبيعية والاجتماعية والشخصية وللطبع والمزاج، كما أنه أيضاً أعمق فنون الأدب تعميماً واشتراكاً بين الأمم، وأوسعها انتشاراً، لأنه يستمد نشأه من واقع انسانيتها، ومن حقـائق ذاتيتها اكثـر ممَّا يستمـده من خصـائص جنسيتها، فمنذ ما دخلت المجتمعات البشرية في عالم الوعي، وأدركت ذاتها، وتيقظ ذوقها كان الحب، وكان الغـزل، وكان السمـو والتحليق في أجواء الانسـانيـة

الرحبة، وآفاق البطولة الفسيحة، وكان الظهور والتغلب على العقبات، وإتيان المعجزات. وأننا إذا ما تدبرنا محصولات الفكر الأدبية عند الأمم المتحضرة، ودرسنا مراحل تطورها وتقدمها في مجالات الأزمنة، ألفينا الغزل أعظم هذه المحصولات حظاً من الأهمية، واكثرها امعاناً في القدم، حتى بلغ ببعض الأمم كقدماء اليونان والمصريين والفينيقيين أن اشركوا الهتهم بنعم الحب ونغمه، وأجروا على ألسنتهم عشاقاً ومعشوقات من ألوان الغزل، وأفانين المناجاة بما يفيض بأنقى العواطف وأسماها، وأعذب الخواطر وأشجاها.

أجل... لقد هدهد الغزل الطبيعة منذ أبعد العهود التاريخية بأرق أغانيه، وأروع معانيه، وأشاع في أرجائها حرارة انفاسه، وأذاع في أجوائها من لطافة إحساسه ما أسبغ على الحياة قبساً من روحها، وحللاً روحانية نورانية فضفاضة تنعم بسنائها العيون، وتهفو لجمالها القلوب، وتنبسط لروائها النفوس، وما ترك الأجيال تلو الأجيال تسير في ركاب الزمن نشوى بخمرة سحره وتغمر بانغامه هياكل الجمال، وتعمر بأحلامه مرابع الخيال، وتستمد منه ما يشحذ الهمم، ويذكي العزائم، ويوقظ الطموح، وينعش الآمال، ويجعل من هذا

الكوكب المحدود مجال العبقرية، ومحراب الخلود. إن الغزل الذي نحن بصدده وصل عند تميم إلى الاشراق بأشعته السحرية النديَّة الدافئة، فدبَّ في القلوب، ومشى في النفوس، وتلألأ في وجه الحياة، لقد كان تميم نسيج وحده بين شعراء الغزل، فحياته ونفسيته وآماله وآلامه وقلبه وعواطفه كلها كانت تتآمر في سبيل إرهاق نفسه الجبَّارة الأبيَّة، ولهذا نراه عندما ينظم الشعر، فأنه ينظمه ليرضي به عواطفه، ويصور مشاعره، وما يختلج في صدره من أحاسيس، وما تذخر به حياته من مظاهر الترف والنعيم والعظمة، لقد كان شعره صورة لحياته الخاصة أولاً، ولحياة الطبقة المترفة ثانياً، وفوق ذلك مرآة للفن والجمال، ولم يكن للمجد أو للمال أو للأغراض الأخرى أي وجود أو تأثير على شاعريته الفذة المرهفة، أو على إحساسه الممزوج بالابداع والرقة، وعند الرجوع لغزله الرقيق يظهر لنا أنه كان يتذوق الحياة تذوق الفنان، وينظر اليها نظرة الشاعر المطبوع الملهم، فهو يفهمها أنها جمال فني خالص، ويحس فيها إحساس المستغرق في تخيلات شتى، وتصورات فنية أخرى، كما أنه يظهر لنا أخلاقه وآدابه وكأنها أخلاق شاعر وجداني عريق بصرف النظر عن المؤثرات الاجتماعية والعائلية، فهو على جانب كبير من

كرم النفس، ونبل العاطفة، والاعتزاز بالنفس والشخصية، لقد كان يتأثر لكل صغيرة وكبيرة من آلام الحياة وصفائها، متمثلاً بروح الأمل الباسم، وبارقة الرجاء المطيف، متعشقاً لهو الحياة، ولذاتها البريئة، واقفاً متبتلاً في محراب الجمال الشائع في شتى مظاهرها البديعية. كل هذا مقروناً بالذكاء المتوقد، والفطنة النادرة، والذهن الثاقب، والتفكير الخصب، والبديهة الحاضرة، والطبع القوي، وبالحياة المترفة، والنعيم المتدفق، وما يشابه في صدر حاملها من شعور وإحساس وعاطفة تقود إلى الشاعرية الوجدانية الرقيقة، والمثاليةالمترفعة.

لقد كان تميم يتذوق الحياة بقلب ظامىء إلى اللذات، وكثيراً ما كانت عواطفه تسيطر على عقله فتقوده إلى الجموح الذي قلّما يقف عند حد، ولا ريب أنه كان يجيب داعي الشباب في نفسه، ويمسح بها عن قلبه آلام الحياة وأشجانها، ويخضع لأحكام عصره وبيئته ليخفي بها آماله المتغلغلة في الأعماق. وعكف على حياة اللهو والترف يعبُّ من معينها، ويخفف بها الآمه وأحزانه، مؤكداً بذلك انصرافه بالكلية عن السياسة، ومؤآمراتها، ومطامعها الجشعة، وعن الحكم

وقيوده الثقيلة، ومهامه الصعبة، وهكذا فعل ابن المعتز العباسي، والوليد الأموي، وإبراهيم بن المهدي الذي تهتك بالشراب والغناء خوفاً من المأمون وإظهاراً له أنه خلع ربقة الخلافة عن عنقه، وهتك ستره حتى أصبح لا يصلح لها.

أجل... أعلن تميم مجونه وتهتكه، وإنصرافه للشراب، وإسرافه في القصف والمجون، وكل ذلك ليظهر نفسه أنه ابتعد عن شؤون الخلافة، وتوجه بكليته ناحية الشعر التي اعتبرها ضالته المنشودة، وتميم كما ذكرنا عاش في بيت الملك، وتربى في ظلال النعيم، وشاهد ما لم يشاهده أي انسان آخر من ألوان الحياة في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء في المغرب والقاهرة، فمن قيان ومغنين، وندامى، وآلات طرب، ومجالس راح، وجوارٍ متعددة الألوان والأجناس، وغلمان عليهم شارة الظرف والحسن والجمال، ونساء هنَّ المثل الأعلى في الجاذبية والسحر والذوق، فكل هذا كان مشجعاً له للجنوح وراء اللهو والمرح واللذة والقصف والغناء والصيد والطرد ونظم الأشعار الغنائية العاطفية والغزل وذكر الليالي السامرة العامرة بالحب ولذاته وخلاعته ومجونه، وكأني بعواطف الشباب المتأججة قد

اضطرمت في صدره، واستيقظت المشاعر والأحاسيس بحب الحياة وأنسها وملذاتها في نفسه، وتفجرت الكوامن العذبة في قلبه صافية رقيقة تغزو الركبان، ويحملها الأثير على جناحيه إلى الأبعاد.

ومهما يكن من أمر فنحن في صدد دراسة غزل تميم وهو أحد فنونه الشعرية من خلال شعره وحياته، وسنقف في محراب الجمال والغزل معه محلقين تارة في الأعالي حيث الألحان والأنغام، وهابطين مرة ثانية حيث الماء والخضرة والرياض الغناء.

يقول:

ولمَّا تلاقينا ولم نخشَ كاشحاً
ولم نتكاتم ما بنا من جوى الحبِّ
جعلتُ يدي مستخبراً فوق قلبها
وجالت بيمين راحتيها على قلبي
فلمَّا تصادقنا اختياراً ورؤيةً
تعلَّق منها الصبُّ بالمدنفِ الصبِّ
وبتنا على غيظ العدو ورغمه
ضجيعين نجني الطيب من شجر القرب
تنير بمثل البدر من صحن خدها
وتفترُّ عن نور الضحى باردٍ عذب

ما أظرفه من لقاء بين حبيبين، بل ما أروعها من صراحة في موضوع الحب يعلنها تميم دون خوف أو مواربة، وما أصدقها من عاطفة يظهرها الشاعر للحبيب عن قلب طافح بالعاطفة والشوق، وكم في ذلك اللقاء من ابداع حينما يصوره كأشد ما يكون حماساً وعاطفة. . . محبان يضعان أيديهما فوق قلبيهما ليستخبرا ما فعلته تلك اللقاءة المفاجأة، وليسمعا الدقات النابضة بالشوق والحنان، وليدركا أثر ذلك الحب الذي ولد فيهما النشوة، وكان أن أمضيا ليلة هانئة يعبان فيها من الحب ما طاب لهما، وكان البدر طالعاً في صحن خدها، والبرد العذب الأبيض يبدو في ثغرها لؤلؤياً ناصعاً.

في الواقع اننا أمام صورة جميلة من الصور الشعرية البرّاقة صاغها تميم لنا صياغة فنيّة وخلع عليها ديباجته البديعية الرقيقة، وأتى بتشبيهاته الفتّانة، واضعاً التعابير الموسيقية المتشحة بالنغم الشجي، ويبدو أن البيت الثاني ذو وقع على الأسماع أكثر مما قبله وبعده، ويكاد يكون بيت المقطوعة.

وقال:

نقبَّت وجهها بخزٍّ وجاءت

بمدامٍ منقَّبٍ بزجاجِ

فتوهمتُ في النقابين منها

قمراً طالعاً وضوء سراج

فاسقياني بلا مزاج فأني

للمعالي صرفاً بغير مزاجِ

وانظرا الأفق كيف قلَّده الأصبـ

ـاح من بعد أبنوسٍ بعاجِ

وهنا يأتي تميم بصورة شعرية جديدة مبتكرة لم يسبقه اليها شاعر عربي، أنه يصف حبيبته وقد رآها تضع على وجهها الأبيض نقاب من الخز الأسود، فيبدو وجهها وكأنه قمراً طالعاً من أفق متلبد بالغيوم السوداء، وحينما قدمت اليه كأساً من الخمرة في زجاجة بيضاء، أوحى له هذا المنظر صورة جديدة وذكره بالقمر الطالع في وجه حبيبته، وبضوء سراج يشع من الكأس. وهنا يقف تميم مشدوهاً أمام هذا المنظر الجميل، فيطلب المزيد من الشراب، وعندما دارت الخمرة في رأسه دعا ندمانه إلى التطلع نحو الأفق الأسود الذي يشبه خشب الآبنوس المنبثق من سماء عاجية بيضاء فهي أشبه ما تكون بلون الوجه.

ويقول:

عذلوا وما عدلوا ولا نصحوا
ليلامَ مغتبقٌ ومصطبحُ

هل للنعيم سوى الصبا سبب
أو للكئيب سواهما فرح

لا شيء أحسن منظراً أبداً
من غادةٍ في كفِّها قدح

تسعى بمحمرٍ على عنم
أطرافه العنَّاب والبلحُ

وأغنَّ أجوف فيه زمزمة
وله بذلك السنُّ فُصُحُ

باكرته والليل أدعجُ ما
في رأسه شمطٌ ولا جلح

وكأنَّ انجمه وقد جنحت
دررٌ رجمن بها الدجى سُبحُ

ولقد ذعرتَ الوحش يحملني
قلقُ العنان مُشذَّبٌ مرح

نشوان أدهم غير أربعةٍ
بيضٍ بها يدنو وينتزح

فكأنه بالصبح منتعلٌ
وكأنه بالليل مُتَشِحُ

تميم هنا يضع اللوم على أحبابه الذين لم يتركوا له حجة إلَّا وأقاموها ولا تهمة من ظلم أو عذل أو قطيعة إلا الصقوها به، ويصف تميم فتاة أحلامه وهي تسقيه كأساً من الخمرة في كفها الجميل... أن قصته مع هذه الحبيبة ومباكرته لها، والليل لا يزال أدعج ليس في رأسه أي أثر للشيب أو الصلع، على حصان أغر محجل قلق نشوان يذعر الوحش في البراري، أما قوائمه فبيضاء كلون الفجر. أنها صورة جميلة تضاف إلى لوحات تميم الفنيه.

ويقول:

عـاقب بمـا شئت سـوى الهجـر
واغلف رضـا قلبـك عن غـدري
ألـيس قـد رحـتُ عـلى كـل ذا
أجـول فـي سـرك والـجـهـر
جـدِّد ولـو بـالسوءِ ذكـري فمـا
أحـبُّ أن تـنـفـك عن ذكـري
يـا مـن أرى ذُلـيَ فـي حـبـه
أحـلى من الـفسحـة في الـعمـر
ومـن إذا شـبـهـتـه لـم أجـد
لـوجـهـه شبهـاً سـوى الـبـدر

في هذه المقطوعة يضع تميم نفسه بمقام نبي الحب الذي يوحي بالتعاليم للمحبين وللعاشقين، ولكل من يدخل محراب الغرام، أنه يطلب من حبيبه أن يعاقبه بكل سلاحٍ إلَّا سلاح الهجر، فهذا لا قدرة له على احتماله لأنه يُضني النفوس، ويقطع نياط القلوب، ويزيد على طلبه طلباً آخر بأن يذكره ولو بالسوء فهو يعتقد أن مجرد ذكره له ولو بالسوء يجعله موضع اهتمامه وعدم نسيانه.

ويقول:

ناولتها مثل خديها مشعشعةً
صرفاً كأنَّ سناها ضوء مقباس
فقبلتها وقالت وهي ضاحكة
وكيف تسقي خدود الناس للناسِ
أليس خدايَ ذابا إذا لثمتهما
فاستنبطا قهوة حمراء في الكاس
إذا تناولتُ خدي كنت نائلة
نفسي وهذا لعمري غير منقاس
قلت اشربي أنها دمعي وحمرتها
دمي وطابخها في الكاس أنفاسي
قالت إذا كنت من حبي بكيت دما
فسقِّنيها على العينين والراسي

يـــا ليلة بـات فيهــا البـدر معتنقي
وباتت الشمس فيها بعض جُـلاّسي
وبتُّ مستغنيـاً بـالثغــر عن قـدحي
وبــالـخــدودِ عن الـتفــاح والآس

هنا يروي لنا تميم قصة من قصصه الغرامية، أو خمـرية من خمـرياتـه الرائعـة الزاخـرة بـالمغـامـرات الجريئة... يصف لنا كيف ناول محبوبته قـدحاً من الخمر شبيهاً بالقبس، فالخمرة التي فيه أشبه ما تكون بخديها، وينتقل ليصف لنا كيف رشف من خدها القبل وهي ضاحكة تستفسر منه عن الأثر بقولها: وكيف تهدي خدود الناس للناس الخ... ألا تعلم أنك حين لثمت خدي ذاب خجلاً فكان عصيره هذه الخمرة التي تراها بهذا الكأس، فأجابها تميم بقوله: ليس كل ما تقولينه هـو الصحيح، إن الخمـرة التي في الكأس هي من دموعي، ولونها الأحمر انحدر من دمي، وانفاسي الحارة هي التي تولت طبخ هذه المواد حتى جاءت كما تراها. فترد عليه محبوبته رداً تتجلى فيه العاطفـة والتضحية فتقول: إذا كنت قد بكيت دماً من فرط حبك وشوقك، فاسقني هذه الدموع فأنا على استعداد لشربها والتلذذ بها... ويعود تميم إلى ليلته الصافية فيصور لنا كيف

نام وهو يعانق حبيبته في وقتٍ كان البدر في كبد السماء، والشمس المشرقة كالخمرة الصهباء تشع من ثغرها، ومن خدودها الشبيهة بالتفاح والآس.

ويقول:

آه من تفتير عينيكَ ... ووردي شفتيك
آه مما جال من ماءِ ... الصبا في وجنتيك
آه من ليلٍ تبدَّى ... طالعاً من طريتك
آه من قدك إذا مال ... على رادفتيك
آه من صبح وليل ... كمنا في عارضيك
أتراني حاكماً يوماً ... بما شئت عليك
أم تراني جازعاً منك ... ومدفوعاً اليك
فاز من قبل يا قرة ... عينيّ يديك

إنها تأوهات نابعة من قلب فيَّاض بالعاطفة والشعور، وطافحة بكل الأماني والآمال، وخارجة من أعماق من ذاق طعم الحب والغرام، أو بلغة أصح من احترق بنيران الشوق والبعاد، فكم هي رائعة هذه الصياغة الشعرية المعبرة المنعشة للقلوب وكم هي جميلة هذه الصورة المتقنة التي أبى تميم إلاَّ أن يجعلها رمزاً للحب ومثالاً للجمال وأحلى من كل ما ذكرناه وصفه لعيونها بالفتور والنعاس وهذه من صفات الجمال

ثم تشبيهه شفاهها بالوردة الحمراء وخدودها التي تُسقى بماء الشباب النضير، وشعر رأسها باللون الأسود الحالك، وقدها الأهيف حينما يرتكز على الردفين ويشبه الليل والصباح بأنهما كمنا في عارضيها، وينتهي أخيراً إلى القول بأن من يقبِّل يديها فأنه يفوز بالغنيمة.

ويقول:

إذا خلوت بمحبوب تُجمشُهُ
فاملأ محاسن خديه من القبل

وامنحك الوصل بالهجران منه ومل
عن التحلُّم للذاتِ والغزل

لا شيء أحسن من كفٍّ تغمزها
كفٌ ومن مَقلٍ ترنو إلى مقل

ومن فمٍ في فمٍ عذب مقبلَّه
كان ريقته ضربٌ من العسل

حتى إذا نلت ما تهوى بلا كدرٍ
فاجعل منامك فوق المتن والكفل

وقل لمن لام في لهوٍ تُسرُّ به
اليك عني فاني عنك في شُغل

إنَّ الثقيل هو المحروم لذته
لا بارك الله فيمن راح ذا ثقل

في هذه المقطوعة الغزلية نرى التقليد الواضح، فتميم لا يأتينا بشيء جديد... أنه ينصب نفسه إماماً للعشاق وقاضياً في محكمة الحب، وخطيباً واعظاً يعطي النصائح والتعاليم للعشاق عندما يكونون في خلوةٍ عن أعين الرقباء، وفي البيتين الأخيرين حكمة غرامية رائعة ليس هناك أجمل من صياغتها بالشكل الذي نراه.

ويقول:

إن كنت متهمتي بغدرك فاسألي
عني ركوبي فيك كل جليل
وفتور أعضائي ونار تنفسي
ودموعَ أجفانيٍ وطول نحولي
وخفوق قلبي عند ذكرك هيبةً
لك وأطراحي فيك كل عذول
أني ليعذبُ لي اليك تذللي
حُباً وما أنا فيٍ الورى بذليل
وأرى التهتك في هواك صبابةً
وأرى التجمل فيك غير جميل
ولو استطعتُ خبأتُ شخصك غيرةً
في مهجتي مع زفرتي وغليلي

إنها مناجاة بديعة يرسلها تميم على جناح الأثير

لحبيبته، وتعبير صادق عن عاطفته تجاه الحبيبة التي لم تتورع مرة عن اتهامه بالغدر والهجران... أنها الحبيبة التي تعرض لأجلها إلى أنواع العذاب، وذاق في سبيلها كل أصناف الآلام. وتحمل الصعاب المنهكة للقوى، ممَّا سبب فتور أعضائه وانسكاب دموعه ونحول جسمه، وخفقان قلبه، كل هذا وهو غير نادم، فالتذلل لها لا يهمه بالرغم من الأيام لم تستطع إذلاله، كما أن التهتك في سبيلها لا يبالي به، وينتهي إلى إعلان غيرته حتى أنه يتمنى لو أنه يتمكن من إخفائها في مهجته مع زفراته وغليله.

ويقول:

خليليَّ هل بعد الفراق تواصل
وهل بعد توديع الحبيب مُقام
دهتني النوى حتى كأنَّ أحبتي
على القرب مني والدنُّو حرام
وممَّا استهام القلب وهو مُصدَّعُ
وأوهى جُمانَ الدمع وهو سجام
مطوَّقةٌ ورقاء تندب شجوها
وتسهر فيه الليلَ وهو تمام

تنـــوح بـــلا دمـــعٍ وللحـــزن ايـــة
علـى نـــوحهـــا مـشهـــورة وغـــرام
ألا يـا حمام الأيـك ما لـك والهاً
كـأنــك مـمن أسـكــرتــه مــدام
كــلانــا محبٌ صــدَّع البين شمله
وكــل مـحـب بــالـفــراق يُـضــام
سلام على من حجَّبت شخصه النوى
وإن كـــان لا يُغني المحبَّ ســلام

هنا يبرز تميم إلى حلبة الشعر متسلحاً بأبيات من الشعـر الشجية العـذبـة التي تحـرك المشـاعـر وتثيـر الأحاسيس وتوقظ الكوامن. . . أنها قطعة غنائية تهيج الأعصاب وتحمل المرء إلى عالم الذكريات، أو قل عنها مناجاة أحباء نأوا وتناسوا فجاء يوقظهم ويذكر حنينه وشوقه، وآلامه المبرحة، وكم هو رائع مخاطبته ورقاء سمعها تهدل على أحد الأفنان فخاطبها قـائلاً: أنني مثلك أيها الطائر الجميل، فكلانا يهدل على غصن الفراق، كـلانا معذب ومـدنف يزرف الـدمع ويـرسل الآهات ويسهر الليل على ذكر المحبين، كلانا أسكرتنا مدامة الحب، وكلانا صدَّع الفراق حيـاته، وأصـاب صميمه.

ويقول:

ناشدتـك الله في ظلمي فما قتلت
عينـاك أنصف مني في المحبينـا

سلي صميمُ فوآدي هل شرعتُ له
سـوى هـواك وان عـذبتني دينـا

إن لم أفزْ مَنك يـا من حبها تلفي
بمـا أريـد فعنـدي مـا تـريـدينـا

فـاستوهبي لي من عينيـك مرحمـةً
ومـن قسـاوة مـا أولـيتـني لـينـا

في هذه المقطوعة القصيرة لا نرى أي جديد... هناك الأسلوب والصياغة والموسيقى، ونحن لا نستطيع إلَّا أن نضيفها إلى غزليات تميم الكثيرة الزاخرة بالعاطفة والشعور والوجدان.

ويقول:

قصـرتُ على دير القُصيـر مجـوني
ورحتُ ومـا لي فيـه غيـرُ مصـونِ

وكـانت بـه للراح عنـدي وللصبـا
ديـونٌ فلم أمطُل قضـاء ديـوني

إذا بكَّـر الناقـوس باكـرتُ شـربهـا
وخـالـف أديـانَ النـواقِسِ ديـني

ورحت صريعاً بين كأس مدامةٍ
وترجيع أوتارٍ ولحظ عيون
ولم تهتكِ اللذاتُ ستر مروئتي
ولا أفسدت فيه الذنوب يقيني

دير القُصير من الأمكنة التي كان يجد فيها تميم ضالته المنشودة، وقد ورد ذكره أكثر من مرة في قصائده وهذا المكان زاخر بالحانات وبكل متطلبات الشباب العابث المغامر، موقعه بالقرب من حلوان وهو على رأس جبل يشرف على النيل في غاية الحسن والجمال الطبيعي، وكان فيه صورة السيدة مريم العذراء وفي حجرها المسيح، وكان خمارويه بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه للشرب، وأخيراً أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بهدمه لكثرة ما كان يجري فيه من مآثم وفجور ومجون.

تميم يقول: أنه جعل كل مجونه ومغامراته في هذا المكان، فكان يخلع عن نفسه الحشمة والوقار، فيشرب الخمرة حتى الثمالة، ويؤدي الديون المترتبة عليه عن الأيام التي انقطع فيها عن الحضور... كان يبادر إلى الشراب وعقد جلسات اللهو والمجون عندما تدق نواقيس

الكنائس، وحينما يكون أصحاب النواقيس في الصلاة، كان هو مشغولاً بالقصف والعزف والشرب فدينه هنـا يختلف عن دين هؤلاء الناس. وبالرغم من كل هذا فأنه لم يخرج كما يقول عن قاعدة الحشمة والآداب، كما أن تلك الأفعال لم تغير يقينه، ولم تضيع شرفه ومرؤته.

# الوصف وأثره في شعره

منذ أن وجد الشعر العربي، والوصف يحتل أبرز مكان في صفحات وجوده، فهو لم يكن إلا غرضاً من أغراضه، وضرباً تأملياً من ضروبه، وباعثاً محركاً للكوامن، ومثيراً مضرماً للأحاسيس، وموقظاً لطيفاً للخيال، ومعبراً مصوراً للألوان والأجناس، أو بلغة أصح هو الخيال المستمد من البيئة، وواقع الحياة كل تلوين وشكل الخواص الأشياء الحسيَّة والمعنوية، وكل رسم لخطوطها وما فيها من نوعية وهيئات.

والوصف كان ولما يزل من أكثر أبواب الشعر العربي تمييزاً، أعمها تقديراً وأهمية، فمن خصائصه أنه يقرب الموصوف إذا كان جميلاً إلى الأذهان، ويظهره بصورة ساحرة جذابة محببة، وعلى العكس إذا كان بشعاً أو قبيحاً.

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الوصف وأثره في شعر تميم من أن ننتقل إلى محرابه لنعيش مع ألحانه ثم لنقدمه

بعد ذلك لشاعر وصافٍ رسم لنا صوراً معبرة صادقة لكل ما وقعت عليه عينيه من أمور الدنيا ومظاهر الحياة، وعندما نضيف فن تميم في الوصف إلى شاعـريته فـلا يسعنـا إلّا أن نقول: بـأن وصفـه امتاز أيضـاً بالـرقة والسلاسة والابتداع في الأسلوب والتشبيه الأنيق، وإبراز الصور بقالب من الروعة والأناقة، وكل هذا على ما يبدو سببه المظاهر الحضارية التي ظهرت في عصـره وبيئته، والتطور الذي خطاه عصره نحو المدنية، بالاضافة إلى سكون قلبه إلى ترف الحياة، وجمـال الزخـرف الحسي النفيس، وإلى عاطفته الشعرية التي حرصت على تمثيل الحضارة، وواقع الحياة، وإظهارها على حقيقتها بثوبهـا الجذاب، وقالبها الفضفاض.

وعندما نأتي على ذكر الطبيعة كشيء أكثر تميم من وصفه، فلا يسعنا إلا أن نقول: بأن الطبيعة كانت منذ الأزل ولا تزال توحي للشعراء بالمعاني العميقة، والآثار الأدبيـة الرائعـة. فلقد أفتتن الشعـراء بها، وصـوروها بمختلف مظاهرها، ورسموا لها صوراً تجمع غالبـاً بين صـــدق الأداء، وبـراعـــة التقـديم، وإظهـــار حـــرارة الاحساس، اما بالنسبة لتميم فـاننا نـرى قصائـده قد جاءت زاخرة ببراعة الوصف ودقائقـه وواقعه الأصيـل

للربيع، وللرياض، وللأزهار وللنجوم، وللكواكب، فهو اذن شاعر الطبيعة الهائم الشادي، والمصور المفتون الذي منحها من شعره، وفنه، وإحساسه وهيامه، وواقع حياته، وتذوقه للجمال كل ما يستطيع.

ووصف تميم الصيد، والطرد، والخمرة، والخيل، وكلاب الصيد، والبزاة... ووصف النيل، والشمعة، والنواعير... وأطنب بوصف مجالس الخمرة، والرفاق، والندمان، وأعواد الغناء، كل هذا بأوصاف دقيقة رائعة، وبأسلوب منمق وتشبيه جميل خلع عليه البيان الرائع، والمعاني العميقة، والألفاظ الشديدة الوقع على الاسماع برقتها وسلاستها، فأعطانا صورة واضحة بأنه شاعر يمتلك ناصية الفن، ويتمتع بالذوق السليم.

وقلده شعراء مصر في ذلك العصر، وبعض من جاء بعده، فساروا على نهجه بوصف الطبيعة، واتخذوا من هذا الموضوع أيضاً وسيلة لوصف قصفهم ولهوهم، ولياليهم العاصفة، ومجونهم العابث، ومن الرجوع إلى ما نظموه في هذا الباب نجد أنهم كانوا يؤثرون الخلوات والشراب في الأماكن الزاهية الزاخرة بالمناظر الطبيعية الفتّانة، وذلك لكي يطيب لهم وصف الطبيعة والخمرة ومجالسها، والسماء ونجومها، وسحبها، وأقمارها،

بالإضافة إلى النسيم، والماء، والورود، والعبير، والأشجار، وهذا كله كان من أهداف الشعراء في ذلك العصر، والمحرك لشعورهم، وأحاسيسهم، وخاصة عندما يقترن بوصف الحياة الثانية عندما ترفرف عليها الرفاهية، وتحفل بالترف والنعيم والزينات، وهنا ينبعث الشعر رقيقاً عاطفياً منبعثاً من شعور رقيق الاحساس زاخر بالرقة والجزالة.

لقد كان تميم في الوصف يفيض عليه من عواطفه وحياته، وما يقتضيه ثوب الواقع، فكأنه كان يحس بكل جارحةٍ فيه، وعندما يصور الطبيعة نراه يعيرها روحه بكليتها، ويفضي إليها بإحساسه، ويحاول أن يدمج هذه المسحات في عواطفه، ووجدانه، وقلبه النابض، كما أننا نرى ملكة التصوير تظهر عنده بأجلى مظاهرها، فتبرز مقدرته البارعة في التشبيه الفني، والتشخيص الدقيق للصور والألوان، وكل هذا يعطي الدليل على فطانته لكل ما يخطر أمام عينيه، فهو دقيق الخيال متلفت إلى كل ما تتطلبه الصور الشعرية من الأصباغ والألوان.

والآن:

يطيب لي وأنا في معرض الحديث عن الوصف وخصائصه عند تميم، أن أعرج على ديوانه فلعلي

استخرج منه بعض الآلىء الثمينة، والحلي الغالية والصور الفتَّانة، واللوحات البديعة، ولعل وصفه لصور الغناء يعطي الدليل على كل ما ذكرناه:

لقد نطق العود عن سرِّه
فغادر كل صحيحٍ كئيب
فشبَّهتُ ميلَ معاصيره
إذا ملنا بعد استواءٍ وطيب
بوجه حبيبٍ بدا ضاحكاً
فعنَّ له لحظ عين الرقيب
فلمَّا استوى نطُقُ أوتاره
حكى نقرُها حسن لفظ الحبيب
تجسُّ الأنامل دستانه
كما جسَّ عرق العليل الطبيب
فيسمعنا حركات السرور
ويكشف عنَّا بنات الكروب

في هذه المقطوعة يصف لنا عود الغناء، الناطق بالأسرار، المعبر عن الأحاسيس، عندما تحرك الأنامل الرقيقة أوتاره الرفيعة، فتنطق عندئذ الأوتار بالألحان الشبيهة بألفاظ الحبيب، وينتقل بعد ذلك ليشبه العود بالمريض والعازف بالطبيب الذي راح يلمسه برفق

وحنان خيفة من أن يزيد بأوجاعه، ويختم المقطوعة بقوله: بأن العود ما كان إلا لإبعاد الآلام، وطرد الأسقام.

وقال:

كأنَّ البركة الغنَّا إذا ما
غدت بالماءِ مفعمةً تموجُ
وقد لاح الضحى مِرآةُ قينٍ
قد انصقلت ومقبضها الخليجَ
تُرى قمر الدجى قمراً حداه
طلوعاً ما له فيها بروج
فلا تعصِ الصبا في لبس لهوٍ
فإنَّ الدهر ذو شغبٍ لجوجُ

هنا يصف لنا تميم بركة الحبش وهي موضع بين مصر القديمة ودير الطين بالقرب من جسر النيل، وكان الخليج يأخذ من ماء النيل في الجهة الجنوبية لمصر القديمة ويدخل إلى بركة الحبش. يقول: إن القمر يتمثل فيها، فيجعله يرى قمراً يحدوه أي يتبعه في الطلوع، وهذا القمر الذي طلع فيها ليس له بروج.

ويقول:

وبـاكيـةٍ من غيـر دمـعٍ بـأعينٍ
على غيـر خـدٍّ دائـمـاً تتـحـدَّر
يغني بهـا زجـل المـدير لقـطبهـا
فـيـطربهـا حُسن الـغنـاءِ فتنعـر
إذا نـزف العشّـاق دمـعَ عيـونهم
فـأدمعهـا مـع كثـرةِ السكب تغـزر

تميم هنا يصف لنا ناعورة تبقى في اكثر الأوقات باكية تـذرف دموعهـا، ولكن بشكـل يخـالف دمـوع المحبين فهؤلاء من عادتهم أن يذرفوا الدموع من العيون على الخدود، ولكن الناعورة تذرف الـدموع دون أن يكون لها عيون أو خدود، وينتقل بعد ذلك ليصف لنا المدير الذي يتولّى تحريكها، فكثيراً ما يغني لها بصوته العالي فتبادره بالنعير، وفي هذه الحالة هي أشبه مـا تكون بالعشاق الذين يلوعهم الفراق فيرسلون دموعهم وأنينهم.

ويقول:

قـد اغتـدي قبـل طلوع الفجـر
والليـل في مثـل خضـاب الشعـر
كـالجـور أو كـالـظلم أو كـالغـدر
وأنـجـمُ الـجـوزاء فيـه تسـري

كأنما تقيسه لتدري
كم فيه من باعٍ لها وفترِ
وللثريا طمعٌ في البدر
فهي له حيث مضى في الأثر
كأنما تطلبه بوترِ
بأكلبٍ تطير حين تجري
من كل قبّاءِ الحشا والحضرِ
تكاد من تلويحها والضُمر
تلمس بالبطن فقار الظهر
وافرة الزور رحيب الصدر
ذواتِ أشداقٍ كفتحِ الشبر
شققن للآذان أو للشطرِ

تميم هنا يصف لنا رحلة صيد قام بها، عندما كان الليل لا يزال يرخي سدوله، فهو كالشعر الأشيب المخضَّب بالسواد، أو لكونْ الجور والغدر والظلم، وكلاهم أسود قاتم يعطي الصورة المظلمة السوداء، ولم يكن الفجر قد طلع بعد، وكانت الأنجم في ذلك الوقت تجري في السماء كأنها تقيس المسافات لتعرف مقدار ما بينها من أبعاد، أما الثريا فكانت تطارد البدر وكأنها تطالبه بثأر قديم.

وينتقل بعد ذلك إلى وصف كلاب الصيد فيقول: أنها كانت تجري طائرة كالريح، لأن ليس بينها إلاَّ كل ضامر دقيق الخصر يكاد ظهره يلامس بطنه، ولعلَّ ذلك بسبب التعب والجوع والعطش، وفوق ذلك فهي وافرة الزور، وصدرها رحيب، أمَّا أشداقها فطويلة طول الشبر لأنها تمتد من الأذن اليسرى حتى اليمنى.

ويقول:

بعثتُ شبه النهود البارزات وما
تحكي خدود الدمى حسناً وتحميرا
من كل تفاحةٍ زهراء مذهبة
كأنها حشيت مسكاً وكافورا
كأنهنَّ خدود قد لثمنَ فقد
أبقى اللثام بها نقشاً وتأثيرا
وكل ليمونةٍ تحكي بظاهرها
لون المحبِّ إذا ما بات مهجورا

في هذه المقطوعة وصف للتفاحة ولليمونة... انه يشبه التفاح بنهود العذارى البارزات أو بالخدود الحمر، فالتفاح له لون شبيه بلون الذهب الأبريز بالاضافة إلى أنها قد حشيت بالمسك والكافور أو هي خدود اثَّرت

فيها القبل وتركت على صفحاتها نقشاً وأثراً، أمَّا الليمون فلونه الظاهر أصفر وهو أشبه ما يكون بلون المحب عندما يتعرض للهجران، أو تأزف ساعة الفراق.

ويقول:

ومشرقة وجنح الليل قارُ
لها من كل ناحيةٍ منارَ

تضرُّ بنفعها فلها دموع
على الخدين مسبلة غزار

أعارَ الغصن قامتها استواءً
ووكلها على الليل النهار

إذا ما رأسها قُطفَ استقامت
وجانبها التخوفُ والحذار

أقول ونارها تسطو عليها
كما بالليل يسطو الانفجار

بنفسي كل مهضومٍ حشاها
إذا ظُلت فليس لها انتصار

يصف لنا تميم شمعة مشرقة ومضيئة في ليلٍ محلولك شديد الظلام، فهي في هذه الحالة لا تنفكُ تسكب الدموع على خدودها، وهذه الشمعة أعارها الغصن قده استواءً واعتدالاً، كما أن النهار أوكل اليها أمر إبعاد الظلام، وكم هو جميل منظرها عندما يقومون

بتمشيطها وتحريك ما يترسب على رأسها من البقايا، وهنا ترتجف وتخاف ولكنها تبقى مشتعلة ونورها بازغاً كالنور في الظلام، وأخيراً يناجيها الشاعر ويضع نفسه فداءها بالنظر لجمالها المتمثل بنحف خصرها ولطف كشيحها وخمص بطنها وفي هذه الحالة تبقى دون مسعف أو نصير عندما تتعرض للظلم.

ويقول:

وبارزةٍ بين أحبارها
بروز الشموس لأسفارها
وقد فصلت بين ثقل الكثيب
ولين القضيب بزنارها
تميس كمثل غصون الرياض
وتضحك عن مثل نُوَّارها
ترى الماء والنار في خدها
قد امتزجا فوق ابشارها
فلا النار تعدو على مائها
ولا الماء يعدو على نارها

هنا وصف لفتاة جميلة بارزة بين رفيقاتها بروز الشمس في السماء، فهي تميس كما تميس الأغصان الرقيقة اللينة، وتضحك مثل ضحك النوار، وقد استوى

الماء والنار ثم امتزجا في خدها، ولكن من العجائب أن الماء لا يتعدى على النار، كما أن النار لا تطغي على الماء بل على العكس هما يعيشان في هـذا المكان بسلام.

ويقول:

يومٌ لنا بـالنيلِ مختصَـرُ ولكـل يوم مَسَّـرةٍ قِصَـرُ
والسفنُ تصعد كالخيول بنا في موجه والمـاء ينحدر
فكـأنمـا امـواجـه تمكنٌ وكـأنمـا داراتـه سُـرَر

في هذه الأبيات الثلاث يصف لنا رحلة نهرية في النيل، انها رحلة ممتعة، وكل رحلة شيقة تكون عادة قصيرة، وعندما يصف السفن التي كانت تمخر عباب النيل صاعدة هابطة فوق الأمواج، يشبهها للخيول في صعودها وهبوطها عندما تكون في مسالك غير مستقيمة، وما أحلى تشبيهه هنا الأمواج بطيات اللحم التي تنمو على البطن من السمنة، أمَّـا داراته المـدورة فكأنهـا خطوط الكف أو الجبهة (ولم نقرأ أو نسمع وصفاً مثل هذا في الشعر العربي).

ويقول:

يا رب ليلٍ من ليالي الكوزِ قـطعتـه بـطفلةٍ عجوز

معشوقة المخبر والبروزِ أذابها حرٌّ لظى تموز
حتى بدت كالذهب الأبريز أرق من فهمي ومن تمييزي
فالطرق فيها ليس بالمجوز عن لحظة الغامز للمغموز

تميم عندما يصف الخمرة يحلق ويبدع فهو ابنها البار وصديقها الحميم، وفي هذه الأبيات الأربعة يأتي على وصف خمرة معتقة طاعنة في السن كالعجوز وقد خلع عليها الطفل لونه وصفاءه، وأذاب شهر تموز حرارته فيها فبدت كالذهب الأبريز فهي على حالتها تلك أرق من فهمه وإدراكه.

وقال:

أذكرني النرجسُ أجفان من
غادرني في صفرة النرجس
فلم أزل الشم مبيَّضه
شوقاً على طيب جنى الأكؤس
حتى أشاب الصبح فرع الدجى
ولم أنم عنه ولم أنعسِ
يا من حكى النرجس لي نشره
ماذا تقلَّدتَ من الأنفس
هبك لبست الصبح وجهاً فمن
أين لبست الشعر كالحِندس

والله لا زال عـــليـــك الـــهـــوى

وقفـــاً وإن كنـــت الـــظلومَ المُـــسي

رأى تميم النرجس فأعاد اليه ذكرى حبيبه الذي غادره وهو أصفر من ألم الفراق، وهذا ما جعله يقوم بلثم ثغره، ويعب من لماه أصفى الكؤوس الرحيقية، وعلى هذا الحال ظلَّ حتى طلوع الفجر، فهو لم ينم وحبيبه لم يتسرب إلى جفنيه النعاس وأخيـراً يناجيـه بقوله: أنت يا من حكى النرجس عنك وعن عبيرك وعن أنفاسك، وعلى فرض أنك ألبست وجهك سناء الفجر فمن أين جئت بالشعر الأسود؟ وفي النهاية يقول له: إن الحب والهوى أصبحا وقفاً عليك ولكنك لا تزال ذلك الظلوم المُسيء.

وقال:

أنـظر إلى النيل قـد عبَّـأ عسـاكـره

من الميـــاه فجـــاءت وهي تســتبـقُ

كـأنَّ خلجـانـــه والمـاء يـــأخـذهــا

مـدائِنٌ فتحت فـاحتــازهـا الغـــرق

كـــأنَّ تـــيـــاره مَـلْك رأى ظــفــراً

فكثـــر أثـر الأعـــادي محنقٌ نـــزق

كـأنَّ مـاء سـواقيـه لنـاظـرهـا
شهب الخيـول إذا مـا حثَّهـا العَنَقَ
فـاشـرب مُغَنّى فـإن اللهـو منبسطٌ
واطـرب مُهَنَّـا فهـذا منـظر أنِـق

يدعونا تميم إلى إرسال نظرة إلى النيل والتمتع بجماله، وعند دعوته لنا يشبهه بقائد عسكري قام يعبىء جنوده استعداداً للمعركة، وجنوده هنا هي الأمواج المتدافعة المتسابقة، ويصف مياهه الغزيرة وهي طافية على الخلجان بمدائن فتحت من جديد ثم جاء الطوفان فأغرقها، ويضيف بأن تيار النيل الجارف أشبه ما يكون بملك في الميدان وقد رأى الفرصة موآتية للفتك بعدوه فكرَّ عليه بحنق وسرعة، أمَّا سواقي النهر ويعني بها أمواجه فتتراءى من بعيد كشهب الخيل عندما يحثها راكبها على السير السريع، وأخيراً يدعو الشاعر ندمانه إلى الشرب والغناء لأن أسباب اللهو موجودة، وإلى الطرب والتمتع لأن المناظر الخلاَّبة غير بعيدة.

ويقول:

يـا حـبَّـذا حـلوانُ فـالـنـيـلُ
ربـعٌ بـحـسـن الـلهـوِ مـأهـولُ

رحتُ ومركوبي به أدهمٌ
على جناح الريح محمول
كأنَّه في الماء زنجيَّةٌ
لها من الموج أكاليلُ
والنيل في رونق شمس الضحى
سيف صقيلُ المتن مسلول
حتى إذا ما درجته الصبا
وماج منه العرض والطول
فهو لمن أبصره جوشنٌ
على مهاد الأرض مسدول
أو حُبُكٌ ترصيعها جوهر
مبدّدٌ فيهنَّ محلول
نادمتُ فيه أحوراً كشحه
أهيفُ فوق الردفِ مجدول
أكثر ما يبذلُ من وصله
لثمٌ على الكاسِ وتقبيلُ

أحب تميم النيل وتغزل به ووصفه وخلع عليه تشبيهاته الرائعة. وفي هذه الأبيات يقول:

أنه اشتاق إلى الذهاب إلى حلوان وهي على شاطىء النيل، وهذا الموضع مأهول بالسمَّار والندمان

وكـل ما طـاب من أنـواع اللهـو والعبث والمجـون، ويمتطي جواده الأدهم حيث راح يسابق الريح فهو أشبه ما يكون بزنجية في الماء وقد خلع عليها النيل أكاليلاً وعقوداً جميلة، ويصف النيل عند الضحى، حينما ترسل الشمس خيوطها الذهبية لتنير صفحاته وتجعله كالسيف المصقول المسلول، وعندمـا تهب ريح الصبـا تحرك أمواجه عرضاً وطولاً وتجعل من منظره درعاً ملقى على أرض ناعمة، أو قل سماء ترصعت بالجواهر، فبعضها بعيد عن بعضه وبعضها قريب، في تلك الجلسة الهانئة نادم تميم حبيباً أحور العينين له خصر لين أهيف مرتكز على ردفين محكمين، وكان ذلك الحبيب يضنُّ على تميم بكل شيء إلَّا بلثم وتقبيل كأسه الذي عليه بقية من لماه ورحيقه.

ويقول:

وقد اغتدي والليـلُ بالصبـح اشمَطُ
وللروضِ كـافـورٌ يفـوحُ بـه النسمْ

بـــازرق يـرمي الــطيـرَ منـــه بمقلةٍ
تكاد ترى ما يسترُ الثوب في الظُّلَمْ

وليس يعيبُ البـــاز راحـةَ مــاجــدٍ
تعـوَّد حمـلَ البـــازِ والسيفِ والقلَمْ

إذا ركب البــازي يســاري وأثــرَّت
لــه لحـظاتٌ كــالـذُبــالـةِ تضــطرم
ذعرتُ به شمـلاً من الطيـر جامعـاً
وخــرجتهـا في كـــل نــاحيـــةٍ بــدم

يصف لنا هنا رحلة صيد قصيرة قام بها والفجر يأخذ طـريقه لـلانبثاق والـروض يعبق بعبير الـرياحين والكافور عندما تحركها النسمات العليلة، وكان معه بازاً ازرقاً يكفي أن يرمي الطير بنظرة فتنفذ إلى قلبه، وكان يضـع البـاز على راحتـه التي تعـودت حمـل السيف والقلم، ويضيف بأن البازي حينما يكون على يساره وهو على متن حصانه فلا ينفك عن التحديق وإرسال الحاظه ذات اليمين والشمال فتبدو وكأنها فتيلة تضطرم، فكم دبَّ الذعر في قلوب الطيور وكم ضرَّجهــا بالدماء.

وقال:

| | |
|---|---|
| وردُ الـخــدود أرقُّ مــن | ورد الــريــاض وأنــعــمُ |
| هــذا تَنَشــقُــه الأنــوف | وذا يــقــبــلهُ الفــم |
| وإذا عدلت فأفضل الورد | يــن وردٌ يُــلثَــم |
| لا ورد إلاَّ مــا تــوتــي | صبــغَ حُمــرتــه الــدمُ |
| هــذا يُشمُّ ولا يُضـمُّ | وذا يُــضَمُّ ويُــشــمَــمُ |

سبحان من خلق الخدود شـقـائق تـتـنـسـمُ
وأعـارهـا الأصـداغ فهي بـهـا شـقـيقٌ مُـعـلَم
واستنـطق الأجفـان فهي بـلحـظهـا تـتـكـلـمُ
وتُبيـن للمـحبـوب عـن سـر المحب فيفـهـم
وتـشـيـرُ إن رأت الـرقيبَ بلحـظها فتسلَمُ
وأعـارهـا مـرضـاً تصـحُّ بـه الـقـلوب وتـسـقـم
فَتِنُ العيـون أجـلُّ من فـتن الـخـدود وأعـظم

هنـا يقسم الشـاعـر الـورد إلى قسمين: الـورد الطبيعي، والورد النابت بالوجنات، فورد الخدود بنظره أرق من ورد الطبيعة وأشهى وأنعم، لأن ورد الطبيعة لا فائدة منه إلاّ للشم، بينما ورد الخدود يقبله الفم وينعم به النظر، فليس هناك عنده إلاَّ الورد الذي صبغته الدماء بحمرتها، ويكرر القول: بأن ورد الطبيعة يُشم ولا يُضم بينما ورد الخدود يُشم ويُضم وهذه فضيلة أخرى فسبحان من خلقه وجعله شقائق حمراء ثم أعارها الأصداغ وجعلها شقيقتها، ثم جعل الأجفان بلحاظها قادرة على الافصاح عن الحب وأسرار الهوى وفضح إشارات الرقيب، وأعارها فتوراً ونعاساً يغزو القلوب ويسبب لها الأسقام، ويخلص إلى القول بأن فتنة العيون أيضاً أشد تأثيراً من فتنة الخدود.

ويقول:

بعثتُ بساكناتٍ طائراتِ
تفوت اللحظ وهي بلا جناح
تطيرُ إذا المجاذيف استحَثّتْ
بها طيران أجنحة الرياح
كأنَّ سوادها في الماء يحكي
سواد الأعين النجلِ المِلاح

وأخيراً يصف لنا تميم هنا العشاريات والسماريات التي كان يركبها الفاطميون عندما يتنزهون في النيل، فيقول عنها بأنها ساكنة وطائرة بآن واحد بدون جناح، وقد تسبق لحاظ العيون، أمَّا عندما تتحرك المجاذيف فأنها تحولها إلى أجنحة للرياح، ويصف سوادها بأنه أشبه ما يكون بلون الأعين النجل.

# الفخر ومظاهره

طرق الشعراء العرب في الجاهلية والاسلام أبواب الشعر، وأفردوا له الصفحات الطوال في تاريخ حياتهم، ولقد جال أكثرهم في مجاله وتبارى فيه، وأرسل قصائده لتعبر عن مكانته في المجتمع ونسبه وقدر أجداده وأسرته وقبيلته، ويبدو أن الفخر في صدر الاسلام قد تضاءل عن المستوى الذي كان عليه في الجاهلية، ففي الجاهلية لم يكن للشاعر سوى قبيلته يفاخر بها وبأمجادها وانتصاراتها وبسيفه ورمحه وحصانه، وبالبادية القفراء الخالية من كل ضروب المدنية والحضارة، فإذا ارتادها كل يوم فلا يرى فيها سوى ما ألفه وتعوَّد على رؤيته من خيل وأباعر ومضارب ورمال، واندمج العرب بعد عهود الاسلام في بوتقة الدولة وتوجهت الحياة القبيلية نحو التطور والحضارة، وتيقظت النواحي التقدمية والمدنية في سبيل بعيد عن الحياة الجاهلية القديمة، وأصبح أكثر الشعراء من روَّاد المدن الكبرى لا يعرفون الغزوات، ولا

يمتطون صهوات الخيول، ولا يحملون السيوف والرماح، بـل عـلى العكس تحلَّت أنـظارهم بـالمنـاظـر الجميلة، وبالطبيعة الفاتنة، وبالمظاهر الجديدة، وكان أن تضاءل الفخر في الشعر العربي، وتوجه الشعراء نواحي أخرى أكثر ملاءمة للعصر وللبيئـة، وأشد أثـراً على العقـول والأذهان، وعلى الحياة السائرة بخطى ثابتة نحو التطور والتجديد فمن جاهلية قاسية جافة إلى مدنية ترتكز على ضروب الشعور والاحساس والعاطفة.

والفخر عندما نحسبه فنّاً من فنون الشعر العربي فلا نقول عنه إلاّ أنه مديح الشاعر لنفسه ولقومه أو بلغة أصح هو تاريخ يحوي صفحات بيضاء على الشاعر أن يسجل عليه مآثره وفضائل اسرته وانتصارات قبيلته، مع التنويه بأدبه وحسبه وشجاعته وماضيـه، وكثيراً ما تتغلب العاطفة فتقود إلى الجنوح والمغالاة، والخروج عن جادة الحقيقة، والابتعاد عن مجال الواقع، بل كثيراً ما تسيطر الأنانية وحب الذات على نفسية الشاعر فتوجهه في اتجاه حيـاتي جامـح، وتقـوده إلى الإنجراف نحـو المهـاوي السحيقة التي تنعدم فيها الحقيقة، والشاعر في هذا المجال يعمد إلى مساجلة خصومه، والتغني بصفاته، وإظهار ما خفي منها، وذكر آدابه وحسبه، وما أنكره الأعداء من فضله وكرمه وشجاعته.

وكم يحلو اتجاه الشاعر إلى الصدق والحقيقة حين يفتخر، بل ما أجدره بالخلود حينما يبتعد عن مظاهر الأنانية والكبرياء، وعلى الأخص حينما يأتي بمقاطع شعرية يتمثل فيها الواقع الصحيح البعيد عن العاطفة والخيال، الخالية من كل أثر للجنوح والمغالاة.

لقد كنت ولما أزل من الكارهين لقراءة الفخر في الشعر العربي، فهذا الفن لم يكن يستهويني، ولا أكاد أجد له مكاناً في قلبي، لهذا فعندما أتحدث عنه أشعر بانقباض وضجر، ولولا الواجب الأدبي الذي يقضي بذلك، أي لولا تكون هناك دراسة أدبية عامة عن شعر تميم، لابتعدت عن الموضوع وتجنبت الخوض في مجاله. وشاعرنا تميم له جولات موفقة في باب الفخر، وقد استطاع أن يبرز بروزاً منقطع النظير على مسرحه، وان يحلق نحو الأعالي في أجوائه، وإذا قلنا أنه لا يكاد يجاريه أو يدانيه أحد في هذا المضمار فلا نكون قد خرجنا عن الواقع والحقيقة، وخاصة عندما نراه يشيد بمآثره ومآثر أسرته الفاطمية، وبنسبه العربي العريق، وبمجده في عالم الأدب، كل هذا بالاضافة إلى شعوره المتدفق من مجد أسرته التليد، إلى اعتزازه بشخصيته ورغبته في إظهارها على حقيقتها أمام خصومه وأعدائه وأهله الذين كان لهم

السهم الأوفر في إبعاده عن الخلافة، ونفيه خارج المجتمع.

ولا يسعنا ونحن ندرس شعر تميم من خلال افتخاره من أن نتساءل:

اليس لتميم جلال المحتد، ومجد الأدب، والخلق الرفيع، وعظم الشخصية التي تحفزه الى التغني والانشاد ودخول باب الفخر، والتحليق في أجوائه؟.

أليس هو ابن الامام الفاطمي الخليفة المعز لدين الله صاحب أكبر دولة إسلامية في ذلك العصر؟ أليس هو الأمير تميم زين الشباب، وشاعر الرقة والجمال، وهل بعد هذا تضيق الشاعرية عليه، وتعجز عن تقديره، وإجلاسه في مكان الصدارة؟.

ومهما يكن من أمر فان أسلوب تميم في الفخر يكاد يكون نسيجاً وحده بين الأساليب الأخرى، فهو يمثل البلاغة والحقائق والبيان الواضح، والرقة والسحر، والسلاسة، ونحن كثيراً ما نراه وهو ينظم في الفخر تتدفق المعاني على لسانه، وتضطرم العاطفة والجزالة في قلبه، وتترقرق العاطفة والشعور الجامح على شفتيه، لقد كان مثلاً أعلى مترفعاً في حياته، وانساناً رقيق العاطفة عاش كالحلم بين الأجفان، وباعتقادي: أنه لولا

الضرورة الملحَّة، وحسد الحاسدين، ومؤامرات الكائدين، ومحاولة المحاولين الانتقاص من شخصيته وكرامته لما رأيناه وهو الشاب الوسيم المتواضع يهبط إلى مجال التفـاخر، وتعداد المآثر، والترفع على أقرانه فروح تميم فوق مستوى الحقد، وأبعد ما تكون عن الاعتزاز بالنفس، والاعتداد على الآخرين، فنحن نعرفه شاعر وصف وغزل وخمر وتشبيب. . . شاعر يعيش للإنسانية وللطبيعة، وإذا كانت حياته الخاصة وظروفه الحياتية أملت عليه ما أملته من ضروب مخالفة واقعه ونفسيته، فأنه ظلَّ على اعتقاده وإن لم يجاهر به بان كل فخر زائل، وكل أنانية باطل، أي أن كل فخر لا تقربه الناس ليس فخراً معترفاً به، أو كل مباهاة لا يقرها المجتمع تكون باطلة، فحديث الناس هو أقلام الحق ولعله ذو أثر كبير على النفس من حديث الانسان عن نفسه.

كل هذا ولا بد من القول بأن الفخر في ديوان تميم جاء على العموم قليلاً، ولكنه يعطي صورة واضحة عنه والآن: فإلى الفخر في شعر تميم نتلفت، لنستخلص منه الدرر الثمينة واللألي البديعة.

يقول:

بـلوتُ الـزمـانَ وأحـداثَـه
علـى السـلم منـهنَّ لـي والـوغـى

فما فلَّلَتْ حربُها لي شباً
ولا ازددت بالسلم عنها رضا
ولم يبلغ العمر بي من سِنِيهِ
ثلاثين حتي بلغت المدى
ولم أرمِ سهمي إلَّا أصبتُ
ولم أدعُ بالدهر إلَّا احتذى
ولا أشرب الماء إلَّا دماً
إذا عرضت لي طرق الأذى
تهون عليَّ صعابُ الأمور
ويصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلا
وصِنْو العزيز إمام الهُدى
سما بي معدٌّ إلى غايةٍ
من المجد ما فوقها مُرتقى
فرحتُ بها فاطميَّ النجار
حسينيَّةُ علويَّ الجنى

تميم هنا تطغي عليه العاطفة المتأججة، والذكريات الجيَّاشة، وقد نراه ينسى نفسه فيخرج عن المواقع المألوفة ليسلك طريق المبالغة كعادة الشعراء الذين سبقوه يقول:

خبرت الزمان، ودرست كل ما حفل به من أحداث، وعرفت حربه وسلمه ولهذا أؤكد: بأن حربه لم تفل من حد حسامي، ولم تزدني إلاَّ نقمة، وان التجاريب جعلتني لا أبالي بكل ما مضى، وبما هو آتٍ، وكل هذا وأنا لا أزال في سن الثلاثين من عمري، وعلى الرغم من هذا العمر القصير فان لي عزم يفوق عزم الرجال الآخرين، وهذا سهمي ما رميته مرة إلاَّ وأصبت فيه الهدف، كما أني لم أدعِ الدهرِ إلاَّ لبَّى وأطاع، وأن الماء لم أشربها إلاَّ دماً أحمراً وخاصة عندما أكون في حالة طلب الثأر، أوِ على وشك الدخول في معركة، وكيف لا وصعاب الأمورِ تهون عليَّ كما أن جميع الورى هو دوني مرتبة وقدراً، ويكفي أني ابن المعز وأخ العزيز الذي رفع قدري إلىٍ أعلى مرتبة، فأنا فاطمي الأصل، حسيني النسب، علويُّ الحسب.

ويقول:

وانّي لألقى كلَّ خطبٍ بمهجةٍ
يهونُ عليها منه ما يتصعَّبُ
واستصحب الأهوالُ في كل موطنٍ
ويُمزجُ لي السمٍّ الزعاف فأشرب
وأغضى على مثل الأسنة صابراً
ولو شئت لم أصبر وللسيف مضرب

ونستُ بـاقبـالٍ وان سـرَّ فـارحـاً
ولا من عجيبٍ يُعجب الناس اعجب

لأنـي بلوتُ الـدهـر ثـم علمتُـه
وجـرَّبت مـا لـم يلقَ مثلي مجـرِّب

أأسـألُ حـظّاً من لئيـمٍ ومُقْـرِفٍ
وأخضـعُ للنكسِ البخيـل وأطلبُ

ومـا لي أخـاف الحـادثـات كـأنني
جهـولٌ بأن المـوتَ ما منـه مهرب

إذا لم أرد وردَ المنـايـا مخـاطِـراً
بنفـسي فـلا جُـنِبْـتُ مـا اتجـنَّب

وأحمـلُ مـا بين المهـالـك حملةً
يعود بها روضُ المُنى وهو مخصب

وإلاَّ فمـا لي من أئمـةِ هـاشـمٍ
ولا لي في الـدهماء جَـدٌّ ولا أبُ

تميم هنا يعلن عن نفسه بأنه يتلقى مصائب الدهر، وخطوب الأيام بقلب صامد يستهين بالصعاب، ويهزأ بعوادي الأيام، كما أنه رافق الأهوال وصادقها في كل المواقف، فأصبح لا يخشى السم الزعاف إذا مزج في شرابه، ومن كان مثله فكيف يخاف صروف الدهر، وقد جرَّبه وخبره وتجاريبه علمته أن لا يصادق إلاَّ الرجال

الـذين يتشبهون بفعـاله وخـلاله، ويحـمـدون شيمـه، ويطرون مدائحه. وكيف لا؟ وهو لم يتعود أن يسأل منفعة من لئيم أو نذل، كما أنه لم يخضع إلى حسود أو بخيل، وأخيراً يتساءل، وكيف أترك حمـل السيف، والسيف عندما أدعـوه يستجيب لي؟ بل كيف أرهب جيوش الأيام وهذا هو الموت أمامنا لا مفر منه، ويقول أخيراً: بأن همته ستصل إلى النجوم حيث سيطويها ثم يعود ليجعل من الرياح مركباً ثم أحمل على الأعداء حملة أضمن فيها النصر، وكيف لا والأماني تقودني، والفضيلة رائدي، وإذا لم تكن هذه خصائصي فلست من آل هاشم، وليس لي على الأرض أباً أو جداً.

ويقول:

ولـكن سَـمت بـي همـةُ عـلويَّـةُ
وقلبٌ إذا ارتـاع الجبـان جسـورُ
ونفس سـواءٌ عنـدهـا الفقـر والغنى
وسـيَّـان بـؤسٌ نـالـهـا وحبـور
وما لي أخاف الدهر أو أحتني لـه
ولي من أبي المنصـور فيـه نصيرُ
عـزيـز بـه عـزَّت خـلافـة هـاشمٍ
وراح عمـودُ البـغي وهـو كـسيـرُ

يفتخر تميم هنا بأن همته القعساء العلوية، وقلبه الشجاع، ونفسه الآبية التي تساوى عندها الفقر والغنى والبؤس والسرور، رفعوه إلى أجواء المجد، ويتساءل: كيف أخاف الدهر، أو أحنو ظهري اليه، وجدي الامام المنصور الذي عزَّت به خلافة هاشم، وكُسُر أصنام البغيِ، ونشر ألوية العدل، وهذا المنصور جد «العزيز» أيضاً.

ويقول:

| | |
|---|---|
| أنـا ابـن الآنف الـشُـمِّ | أنـا ابنُ الأنجم الـزُهـر |
| أنا ابن الوحي والحكمةِ | والـفـرقـان والـذكـر |
| أنـا ابن البيت والمـروةِ | والـمـشـعـر والـحِـجـر |
| أنـا المُسـبـلِ للنعمى | أنـا الكـاشفُ للنصـرِّ |
| أنـا الـراتـقُ للفـتـقِ | أنـا القـاصمُ للظهـر |
| أنـا الضـارب بـالبيضِ | أنـا الـطاعن بـالسمـر |

هنا يتغنَّى تميم بأسرته الفاطمية، ويبدو هذه المرة عقائدياً يدعم أقواله بالتعابير الفاطمية المعروفة كقوله: أنا ابن السادة الهاشميين، أو ابن النجوم الساطعة، أو ابن الوحي والحكمة والذكر والفرقان والبيت والمروة والحجر والمشعر ولا يقف عند هذا

الحد بل ينتقل ليقول: بأنه ابن من رتق الفتق، وقصم الظهر، وضرب بالسيف وطعن بالرماح.

ويقول:

نحنُ الـذين بنـا الكتـاب مُنَـزَّلٌ
وبنـا يجيبُ الله دعـوةَ مـن دعـا
لـم نُلفَ إلا مـاجـداً أو راشـداً
أو رافـداً أو صـاعـداً أو مصقعـا
ولـربَّ مضـطرٍ دعـاني صـارخـاً
يـرجـو نـدايَ ونصـرتي مُتكنِعـا

ويعـود هنا أيضـا لترديـد النغمة المعـروفـة وهي الافتخـار بأجـداده فيقول: أنـا ابن من نزل الكتـاب لأجلهم، وبهم يُستجاب كل دعاء، فاسرتنا الفاطمية لم تنبت إلاَّ الماجدين، والراشدين والرافدين والصاعدين والمصقعين، وكم من مضطر دعاني لنجدته ونصرته وهو متعلق بي.

وقال:

هِممي أنافت بـي على الـهمـم
قبـل الـفـطامِ ومبـلغ الـحُـلُمِ

وسمـــا بقــدري فــي العُــلا أدبــي
حــتــى وطئــتُ كــواكــبَ الــظُّلمِ
تـثـنــي عــليَّ إذا ســكــتُّ يــدي
بـسـمــاحــهــا وتضــيء لي شــيمــي
لــم أخشَ قطُّ حــلولَ حــادثــةٍ
والليثُ لا يخُشى من النعم
جدي النبيُّ المستضاءُ به
وأبي المعزُّ مجللُ النعم
وأنـــا الـــذي شهــد الــوفــاء لــه
بـــالــصــدق فــي لاءٍ وفـــي نــعـــم

روح وثَّـابة، ونفس محلقـة، كـانت لهـا الآمـال الكبـار، وبعد أن أصـابتها الأيـام بسهامهـا تجالـدت وصمدت فلم تحطِّم تلكَ السهام النفس المتطلعة الوثَّابة بل على العكس زادتها احتمالاً على المكاره. في هذه الأبيات يذكر تميم أن همته فاقت على جميع الهمم ولمَّـا يبلغ الحلم، أو عندمـا كان في عهـد الطفـولة ويضيـف بـأن مركـزه وأدبه سمـا بـه حتى داس على الكـواكب، فهو عنـدما يسكت تتكلم يـده بكـرمهـا، وتضيء له مكارمه، كما أنه لم يخش في حياته حدوث مكروه، والليث عادة لا يخشى من النعامة، وينتهي إلى القول بأن كل هذا المجد وصل اليه بطريق الوراثة من

جده النبي محمد الذي أضاءت أنواره الدنيا، ومن جده الخليفة الفاطمي الامام المعز لدين الله الذي تفضَّل عليه بانعامه وعطائه، وتميم يستحق كل هذا فالوفاء شهد له بالصدق سواء كان في مواقف النفي أو الاثبات.

وقال:

أتضيقُ بي الأرضُ العريضةُ ساعةً
والأرضُ فيها قينةٌ ومُدام
ويفوتني حظي وتحتي سابحٌ
رحبُ اللبان وفي يديَّ حُسامَ
تا الله لا أغضي على مضضٍ ولا
يغتالني المتغصِّب الظلَّام

يستغرب هنا متسائلاً، كيف تضيق الأرض على رحبها عليه وفيها كأس مدام وفتاة تعاطيه القُبل؟ وكيف يذهب حظه من هذه الدنيا وتحته حصان سابح رحب الصدر، وفي يده حسام قاطع يفري الحديد... أجل ما دام كل هذا بيديه فلا يخاف من اغتيال ظالم مغتصب.

وقال:

ما أبعد الغيث من تشبيهه بيدي
وأقربَ الشمس من أن تقتفي شيمي

مـا نـام يـومـاً فـؤادي عن تنبهـه
ولا تلعثـمَ في مـجهـولـه فـهمـي
إذا اكتحلت بنومي استيقظت فطني
حتى كـأني إذا مـا نمتُ لم أنمِ
فما السيوف سوف ما أرهفت فطني
ولا الرياض سوى ما نمقّت حكمي
فجردوا البيض من رأيي ومن فكري
للضرب والتقطوا الياقوت من كلمي
كـأنمّـا النـاس حـولي ظلمـة وأنـا
بـدرٌ وكيف يقـاسُ البـدر بـالـظُلُم

يقول:

ما أصعب أن يقاس المطر بما يفيض من يدي من سخاء، وما أبعد الشمس عن اقتفاء أثـاري وشيمي، ففؤادي لم ينم يوماً عن طلب المجد، كما أن فهمي جاء بفضل حكمتي وتدبيري، وأخيـراً يقدم النصـائح لأصدقائه فيقول:

عليكم أن تجردوا السيوف فهي قدَّت من فكري ورأيي، كما أن الياقوت من كلماتي، فجميـع الناس ظلمة بالنسبة لي، لأني البدر وهيهات أن يقاس البدر بالظلمة.

ويقول:

لا ألـفـتُ الـعــلا ولا الـفــتـنــي
إن تــوشــحــتُ دونـهــا بــوشــاحِ
أو تــرفـهّت أو تـشــاغلتُ عـنهـا
بــأبــاطــيــل قــيــنــةٍ أو بــراح
أنــا فــردُ النهى وربُّ المعــالي
وحســام الكـفــاح يــوم الكـفــاح
أنــا كــالجــدِّ في الأمــور إذا مــا
كــان غيـري فيهنَ مثــل المــزاح

يؤكد تميم بأن لا صلة له بالعلا، ولا للعلا صلة به إذا حجب وجهه عنه، أو تشاغل عن طلبه بالأباطيل والقيان والراح، وينتهي إلى القـول، بأنـه رب النهى والمعالي وسيف الكفاح يوم الحرب، وهـو الجد في الأمور عندما يكون فعل الناس كالمزاح.

ويقول:

يا بني هاشمٍ ولسنا سواءً في صغار من العلا أوكبار
ان نكن ننتمي لجدٍّ فإنّا قـد سبقناكم لكـلِّ فخار
ليس عباسكم كمثل عليٍّ هل تقاسُ النجوم بالأقمار

تميم هنا يخاطب العباسيين (وهم من بني هاشم)

فيقول: نحن وأنتم لسنا سواء في الصغار أو الكبار، وإذا كنا ننتمي لجدٍ واحد فاننا سبقناكم في مجالات العـزة والمجد والفخـار. وهـل يمكن أن نقـارن بين العباس وعلي بن أبي طالب؟ ففي هذه الحالة نقارن بين النجوم والأقمار.

# المديح

المديح فن من فنون الشعر طرقه اكثر الشعراء فتكسبوا به، ونالوا ما يطمحون اليه من جاه ومجد ومغنم، كما أن بعضهم اتخذه آداة للتقرب من الملوك والوزراء والحكام، وتنوع المديح بحسب الظرف والمكان والأوضاع الاجتماعية ومكانة المادح والممدوح، وكل هذا جدير بالاعتبار والدراسة. أمَّا ونحن في معرض التحدث عن تميم وما قدمه في شعره من مدائح، فلا يسعنا إلَّا أن نقول أن هذا الشاعر لم يمدح أحداً من الناس إلَّا والده الامام المعز لدين الله الفاطمي، وأخيه العزيز بالله، فديوانه جاء خالياً من قصائد المدح، ولعلَّ تميم كان يعتبر نفسه أميراً، ووليّاً للعهد ومن أسرة عريقة بالأمجاد، فكيف والحالة هذه يمدح من هو أقل منه قدراً، كما وأنه لم يكن بحاجة إلى الأموال ليمدح الناس بشأن الحصول عليها.

ومهما يكن من أمر ففي ديوان تميم قصائد طوال

نظمها في والده الامام المعز وفي أخيه الامام العزيز وقد نرى فيها النفس الطويل، والتصرف بالقوافي كما يشاء، فهي تتعادل، وتطيعه مختارة، فتأتي معبرة عما يجول بخاطره، وكل ذلك بأسلوب جزل رقيق، وفي أكثر الأوقات تأتي قوافيه في مدحهما ناطقة عن خصائصهما، ناطقة بأعمالها، مشيرة إلى حوادثهما وتاريخ حياتهما، وقد تطغي العاطفة أحياناً عليه فتقوده إلى الجنوح والمغالاة والابتعاد عن الجادة الصوابية، وأحياناً يفيء إلى محراب الفلسفة فيقدم لنا صوراً عقائدية، وتعابير باطنية إسماعيلية لا يفهم معانيها إلاَّ كل خبير سبق له أن درس هذه العقائد وألمَّ بعلم التأويل والتفسير الفلسفي الباطني، وكم من مرة أظهر لنا تميم نفسه كشاعر سياسي خبير بالأحوال والأمور الطارئة السائدة، فيحمل على خصوم الخليفة، ويهاجم أعداءه، متغنياً بالأمجاد والفضائل، ووصف المعارك التي كان يخوض غمارها الفاطميون، والانتصارات العظيمة التي كانوا يحرزونها. وهنا لا بد من التساؤل عن الأسباب التي كانت تدفع تميم إلى إرسال هذه المدائح إلَى الخليفة الامام العزيز بالله؟.

والجواب هو أن تميم عاش في مصر حياة غير

مستقرة كما سبق لنا وقلنا، فهو كان شديد الخوف والحذر من كل شيء، فأعداؤه كما يبدو، وحساده كانوا يتربصون به الدوائر، ويحصون عليه الأنفاس، لينقلوا إلى أخيه العزيز بعض أقواله وتصرفاته، وما يسعى إليه في سبيل الخلافة، وكثيراً ما كان هؤلاء يحورون الوقائع، ويغيرون مجرى الصحيح إلى كذب محض، ويختلقون أخباراً لا أساس لها في الوجود.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فان تميم كما ذكرنا في أكثر من مرة حُرم من الخلافة، وأبعد عن الأجواء السياسية والاختلاط بالمجتمعات التي توجه شؤون الدولة والبلاد، لهذا فان نفسيته أصيبت بعقدة النقمة على كل شيء، ولكن تلك النقمة على الرغم من قسوتها وقوتها ظلَّت كامنة في صدره لا يبوح بها لأحد، ولا يعبر أن يكشف عنها لأي انسان، وذلك خوفاً من سلطان الخلافة وسيفها القاطع الذي لا يرحم من كان يخطِّط للانتقاض عليها. ولكن لا بد من الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول: بان تميماً كان شديد الغيرة على الدولة الفاطمية، حريصاً على المحافظة على كيانها ومجدها مهما كانت الأسباب، لذلك فان عواطفه كثيراً ما دفعته إلى الرضى

والاستسلام والاعتراف بالأمر الواقع، ونحن عندما نقرأ مدائح تميم بوالده وبأخيه نشعر بأننا أمام شاعر غريب جاء يمدح خليفة لا تربطه به أية قرابة، ولا بد من القول هنا أن صفة الامامة بنظر الفاطميين هي أرفع من صفة الأبوة والأخوة، وكل هذا كان من الأسباب التي ألبست قوافي تميم في المديح أثواب المتانة والروعة، وقد نرى بالاضافة إلى كل ما ذكرناه أن تميم كان يسلم على أخيه بالرغم من أنه أصغر منه سناً بسلام الامامة، وفي هذا الدليل القاطع على أن تميم كان يقدر هذه التقاليد ولا يحيد عن ملتزماتها.

وأخيراً لا بد لنا من القول بأننا نشاهد في مدائح تميم لونين: الأول الشعر الذي مدح فيه الأئمة بصفات الامامة الفاطمية، والثاني المديح العادي الذي اعتاد الشعراء أن ينشدوه في الملوك والأمراء، وهذا اللون لا يظهر إلَّا فن الشاعر وقلَّ أن تجد فيه أي أثر للبيئة التي تحيط بالشاعر إلَّا من ناحية الظروف التي انشد فيها ذلك الشعر، على أن كل هذا لا يمنعنا من التأكيد بأن تميم حلَّق في الأجواء العالية وهو يمدح والده وأخيه، فأظهر أن أقواله تنبعث من قلب مفعم بالمحبة والطاعة والولاء، وفيه الاستعطاف والتكذيب القاطع لكل ما روجه الأعداء عن طمعه بالخلافة.

وكم هو جدير بنا الآن بعد هذه التوطئة الموجزة أن نفيء إلى شجرة تميم لنقطف الأثمار الشهية ونتنشق العبير العابق على أنغام الموسيقى التي تحملنا إلى عالم الروح الريَّان المخضوضر بالأماني والآمال.

يقول:

ليهنك أنَّ الله فوقك مالك
ودونك كل المالكين عبيدُ
وأنك غرسُ الله فينا واننا
غروسك يُنمي فضلها ويزيدُ
وجوهٌ تجلَّت في سناك وانفسٌ
ونبتٌ تروَّى في ثراك وعود
وهل أنا إلَّا من بناك التي غدت
يشيدها فضلٌ لديك وجود
فأيَّ أيادي الله نبدأ بشكرها
لديك وأيَّ المكرمات نعيدُ
لئن خصَّني منها الاله بحظوةٍ
لقد عمَّ منها العالمين سعود

هنا يظهر لنا تميم عقيدته الاسماعيلية الصحيحة، فهو عندما يخاطب والده الامام المعز لدين الله يعطيه

الرتبة التي منحها الله له وهي الامامة القيِّمة على الشريعة المحمدية والحافظة لها، وكلماته هذه فيها الرد البليغ على بعض الفرق من الغلاة الذين وضعوا الامام بمرتبة الألوهية، فهو هنا يرميهم بالكفر والغلو والالحاد مدللاً على أن الله هو فوق كل شيء وهو القادر القدير المحرك للموجودات، وأن الامام هو الوصي على الأمانة التي تركها النبي محمد، ويقول: بلزوم طاعة الامام لأن الواجبات الدينية تقضي بهذه الطاعة، فالامام هو غرسة الله في الأرض أوجدها لتكون الظلال الذي تفيء اليه البشرية. وقد أبى الله أن يجعل أحداً من البشرية يرتفع إلى هذا المقام الامامي، كيف لا وهو الأمل المرتجى الذي لا مفر عن محبته وطاعته.

ويقول:

رأيت معداً كالحسين وإنمَّا
يطولُ على المولودِ أن انجب الجدُّ
تغرب فهماً مثلما ذاب رقةً
وظرفاً فما في كنه وصفٍ له حد
به يشتفي السمعُ الأصمُّ بلفظه
وتُشفى برؤيا وجهه الأعين الرُّمد

كـأنَّ ضـيـاء الشـمس ردَّاه نـوره
وأهـدى اليـه قلبـه الأسدُ الـورد
ولـولا احتمـال النفس كـل مشقـةٍ
إذاً لتساوى في العلا الحـرُّ والعبد
كذا السيف لا تستخبر العين عِتقـه
إذا لم تفـارقـه الحمـائـل والغمـدَ

يشبه تميم والده «معد» وهو الامام المعز لدين الله بجده الحسين بن علي، ويضيف بان المعز حاز على الرقة والفهم ووصل إلى الأوج بحيث لا يستطيع أن يصل إلى وصفه أحد، ويكفي أن يكون يملك القوة على إسماع الأصم وإبراء الأعين الرمد، وأمَّا قلبه فقد وهبه له الأسد الغضنفر، وينتهي إلى القول بأنه لولا المشقة واحتمال النفس المصـاعب إذاً لتساوى الحـر والعبد في مجال العـزة والكرامـة، وهكذا السيف فلا تدرك العين قوته ومضاءه إلَّا بعد أن يفارق الحمائل والغمد.

ويقول:

أنـا ابنُ من قد أعـزَّ الدينُ منصله
وأذعنت لـعـلاه العـربُ والـعجـم

أعني الامام معدا خير من حسنت
به الخلافة واستعلت به النسم
من لم يكن بك دون الناس معتصماً
أمسى وليس له في الأرض معتصم
يا مطلق الأمل العاني ومخرجه
لليسر من بعد ما أودى به العدم
لولا معدٌّ أمير المؤمنين لما
عزَّ الهدى وفشت في عصرنا النعم

هنا يفتخر تميم بانتسابه للامام معد (المعز لدين الله) الذي أقام دعائم الدين بحد سيفه، وخضعت له العرب والعجم، واعتزت به الخلافة، وحوى المجد والندى والفخار، فالذي لا يعتصم به ويطيعه يصبح وكانه دون عاصم في الأرض، ثم يخاطبه أخيراً بقوله أنت الذي تطلق العاني وتخرجه من العدم إلى أمكنة اليسر والانشراح ولولاك لما عمَّ الهدى وفاض الخير في هذه الدنيا.

ويقول:

فيا بن الوصي ويا بن البتول
ويا بن نبي الهُدى المصطفى
ويا بن المشاعر والمروتين
ويا ابن الحطيم ويا بن الصفا

لـك الشـرفُ الهـاشمي الـذي
يـقـصِّـرُ عـنـه عُـلاَ مـن عـلا
فمن حد سيفك تسطو المنون
ومن بـطن كفـك يُـبغى النـدى
ولـو فـاخـرتـك جميـعُ الملوك
لـكـانـوا الـظلام وكنـت السنـا

تميم في هذه الأبيات يمدح أخاه الامام العزيز، فيعطيه الألقاب الاسماعيلية المعروفة كقوله: يا ابن الوصي وابن البتول اي يا ابن علي وفاطمة، وابن المصطفى النبي، ويضيف على ذلك أسماء مناسك الحج وهي لها مدلولاة عليه، وأخيراً يصفه بأنه صاحب الشرف الهاشمي الذي لا يمكن أن يرقى اليه أحد، وكيف ذلك ومن حد سيف الامام المعز تكمن المنايا كما أن الجود من كفه يبدو منهمراً سخياً، وأنَّى للملوك الآخرين أن يفاخروه، وهل يفاخر الظلام النور؟.

ويقول:

إمـام لـه من كـل نفسٍ مـراقب
وفي كـل أرضٍ عقـدُ عـزٍّ ومِقْنَب
مـحبتـه حتـمٌ على كـل مسلمٍ
وطـاعتـه فـرضٌ من الله مـوجَبُ

كأنَّ العطايا والمنايا نوافِلٌ
يجود بها في حين يرضى ويغضب

إن هذا الامام أي العزيز له في كل نفس محبة وعقد وواجب، والأرض بطولها وعرضها لم تكن إلَّا ميداناً لخيوله الغائرة، كما أن محبته فرض على كل مسلم وهكذا طاعته فان الله قد فرضها، وما دام يعطي العطايا والندى ينهمر من راحتيه كالندى من السماء، فانه وحيد عصره، وفريد دهره.

ويقول:

يهنا العزيز من العلياء منزلة
لم يحوها ملكٌ في سالف الحقب
خلافة علويٌّ أصل مورثها
ومولدٌ نبويُّ الجنس والحسب
ولو حويت أبا المنصور مرتبةً
من المكارم طالت أرؤسَ الرُتب
أنت المسمَّى المُرجَّى قبل مولده
والخامسُ القائِمُ المذكور في الكتب
ما زلت تخطبُ للعلياء أنفُسها
دون الملوك ببيض الهند والذهب

حتى جلستُ على الجوزاء منفرداً
بها وقبلتها في موضع الشنب
مكارمٌ حُزتَها لم يحوها ملكٌ
في سالف الدهر من عجم ولا عرب

والشاعر هنا يقدم المدح للامام العزيز [أبو المنصور]، تهانيه منوهاً بالمنزلة الرفيعة التي وصل اليها، والتي لم يصل اليها ملك قبله في الأزمنة القديمة، وينتقل بعد ذلك ليقول: بأن خلافته علوية الأصل والمحتد والوراثة فهي من شجرة النبوة المحمدية حسباً وجنساً، وعندما يخاطبه يقول: إن منزلتك هي في أعلى مكان، ويكفي أنهم سموك بالعزيز قبل أن تولد، وأنك الامام الخامس الذي ورد ذكره في الكتب، ومعنى الخامس هنا أن الاسماعيليين يعتبرون «عبيد الله المهدي» صاحب أول عصر الظهور، وبعد القائم وهو الثاني، ثم المنصور وهو الثالث، ثم المعز وهو الرابع، ويأتي العزيز فيحتل المرتبة الخامسة، وينتهي أخيراً إلى القول: بأنك لا تزال مجداً وصاعداً نحو العلياء حتى جلست أخيراً على الجوزاء منفرداً وهيهات أن يستطيع اللحاق بك أحد من الملوك.

ويقول:

ومـا لي أخاف الـدهـر وأحتني لـه
ولي من أبي المنصـور فيـه نصيـرُ
عــزيــزٌ به عــزَّت خــلافــة هــاشمٍ
وراح عمــودُ البـغي وهــو كـسيــر
فيا ابن الذين استُنبط الوحيُ عنهم
وأضحى بهم وجــه الـزمــان يُنيـر
ويا ابن الملوك الشمُّ من آل هاشمٍ
ومن طــاب منهم ظـاهــر وضميـر

كيف أخاف الدهـر وصروفـه والامام العـزيز أبـو المنصور نصيري، هكذا يقول الشـاعر، فـالعزيـز هو الامام الذي عزَّت به خلافة هاشم وكسر البغي وأزال معالم الكفر، فيا بن من نزل عليه الوحي، ويعني به محمد النبي، لقد أصبح وجه الزمان بك منيراً، ويا ابن الهاشميين الذين زكى وطاب فرعهم وأصلهم، وحسن ظاهرهم وباطنهم... إن ودادك في قلبي، وان غرسك لا يبور.

وقال:

دعـا باسمـك الداعي بمكـة معلنـاً
فطاب لأهل المـوسم الحجُّ والنفـرُ
وحنَّت اليــك المــروتــان وزمــزم
وثوَّب تصريحـاً بك الـركن والحِجْرُ

مســارح آيــات القُــران وأربــع
بهـا ظهر الايمـان واندفع الكفـر
وأرض غـدا للوحي بين عـراصهــا
مجـالٌ ولـلاسـلام في أهلهـا نصـر
وأنت بهــا يَــا ابن النبي محمــد
أحقُّ إذا مـا بانتِ الحُججـج الـزُهـر
وأنت العـزيزُ المستضـاءَ بـه الـذي
أنـارت له الـدنيا وتـاه بـه الـدهـر
فحسب العـلا والمجـد أنـك ربهـا
وأنـك في ظلمـاء كـلَّ دُجىً فجـر

يقول:

في مكة أعلن أسمك بأنك الامام والخليفة فازدهر موسم الحج وحج اليه عالم كثير، كما أن زمزم والركن والحجر والمروتان حنوا إليك، وهذه المقامات المقدسة أماكن ظهر فيها القرآن، وهبط في أرجـائها الـوحي، وانبثق الاسلام ليحطم الكفر، ويبيد الالحاد والشرك، وكم هو جدير بك أن تتسلم هذه الأمكنة المقدسة، فأنت وارث النبوة، وخليفة محمد، وأنت العزيز الذي أنار الدنيا بضيائه، وتاه بـه الدهـر فخراً، وكـان ربّاً للمجد، والعلا، وفجراً لكل ظلام.

وقال:

حـوادث الدهـر جيشٌ غير منهـزمٍ
على أعــاديــك لا تُبقي ولا تــذر

يهنيك أسطولُ جيش لم تزل خدماً
لـه الـريـاح بمـا قـد شـاء تـأتمـر

حتى أتـاك بأُسـدٍ في الكـريهـة لا
يثنيهم الخوفُ عن خطبٍ ولا الحذر

قد حكمَّتهم رقاق البيض فاحتكموا
وأنجـدتهم طوال السمـر فـانتصـروا

وأصبـح الشرك للتـوحيـد منخفضـاً
والــروم ليس لهم ورد ولا صـــدر

ولم تدع منهم بيضُ السيوف سوى
من قد حماها الكمى والدلُّ والخَفَر

تخالف الناس في فضل الملوك ولم
يأتِ الخلاف على تفضيلك البشـر

وكيف يعتـادنا فيـك الخـلاف وقـد
أتى بفضلك نصُّ الــوحي والسـور

يقول:

إن حوادث الدهر هي الجيش الذي جنده الله ليسير في ركابك، ويحارب أعداءك، أو الأسطول المسخَّر

لخدمتك في الحروب، كما أن الرياح عندما تسيره تجعله حسب رغبتك، وطوع بنانك، وكل هذا مضافاً إلى الأسود الذين رغبوا بالانضمام اليك غير عابئين بالموت، فهم في القتال يحتكمون للسيوف، وينتصرون للرماح في سبيل القضاء على الشرك، وإعلاء كلمة التوحيد، والفتك بالروم الذين لم يبق لهم أثر، والحقيقة فان اختلاف الناس وقع في سبيل اختيار الملوك الآخرين اما بالنسبة اليك فلم يكن ثمة اختلاف لأن الوحي هبط بتفضيلك، ونزلت السور بحقك.

وقال:

لأنت العزيزُ المصطفى والذي بِهِ
غدا الملك غضَّ الفرعِ مجتمعَ الوفر
وأنت سراج الحق في كل شبهةٍ
وغوثُ الورى واليسر في اثر العسرِ
تسيرُ بسيرات النبي وهديه
وتتبع ما قد صحَّ عنه من الأثر
وأنك أنت الخامس القائم الذي
تدينُ له أرض العراقين عن قسر
وأنك مهديُّ الأئمةِ كلهم
وصاحب ذا الوقت المسمَّى وذا العصر

أي أنت العزيز الذي استطاع أن يجعل من الملك غضّاً رطيباً، كما أنك نور الحق الذي لا خفاء له، والمنقذ للورى في اليسر وزمان العسر، ويكفي أنك تسير على هدى النبي محمد وتتبع تعاليمه، فالملك مُذ أن تسلمته سطع سطوع البدر في السماء، وأنت الامام بالنسبة لأئمة الظهور، والذي ستدين له أرض العراقين، كما أنك مهدي الأمة جميعها وصاحب العصر والوقت.

وقال:

ما أنت دون ملوك العالمين سوى
روح من القدس في جسمٍ من البشر
نورٌ لطيف تناهى فيك جوهره
تناهياً جاز حدَّ الشمس والقمر
معنًى من العلة الأولى التي سبقت
خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصلٌ
وأنت لله فيهم خيرُ مؤتمر
وأنت آيته من نسل مرسله
وأنت خيرته الغراء من مضر
لو شئت لم ترضَ بالدنيا وساكنها
مثوىً وكنت مليك الأنجم الزَهر

يقول:

أنك لست كبقية الملوك، لأن نفسك نفس إمام شريفة لطيفة انبثقت من الـروح الكليَّة القـدسية، ثم حلَّت في جسمٍ ترابي طبيعي كثيف، وإن هذه النفس تحتل مرتبتها مرتبة العقل الفعَّال الأول الذي هو العلة الأولى وهذا من اعتقادات الاسماعيلية التي كان تميم يقول بها، وبما أن العقل هو أدل الموجودات فيكون سابق لخلق الهيولى، والامام في عالم الطبيعة ممثول العقل فهو أقرب المخلوقات إلى الله، والامام العزيز الذي ينحدر من أسرة النبي فهو بمقام العقل الـذي يستمد قوتـه من الله، وهو خليفـة النبي والقيم على الشريعة والحافظ لنظامها، وينتقل تميم بعد كل هذا إلى مخاطبته قائلاً: لو شئت لكنت ملك السماء، وهذا معناه حسب التأويل الاسماعيلي بأن نفس الامام تصعد إلى العالم الأعلى بعد مفارقتها للبدن لأن معدنها من معدن الأرواح القدسية، وعودتها تكون إلى عالم العقل الذي انبثقت واستمدت القوة منه.

ويقول:

وحسبـك أن النـاس جـادوا تصنعـاً
وجـودك طبـعٌ ليس فيـه تصنُّـعَ

وأنــك للعليـاء والمجــد جــامــعٌ
وغـيــرك للوراث والـلؤمِ يجـمــعُ
وأنـك تـدنـو كـل يــومٍ تواضعاً
وأنت من الـجــوزاء أعلى وأرفــع

الشاعر هنا يعيد ما كان قد ذكره سابقاً مؤكداً: إن سخاء جميع الناس فيه تصنع، أما سخاء الامام العزيز فطبع ليس فيه أي تصنع. وان يجمع المجد والعلياء بينمـا غيره يجمـع الكفـر واللؤم، وأنـه بمـا لـه من المكرمات يتقرب كل يوم إلى الجوزاء.

وقال:

تلقاهُ في الحرب كرَّاراً إذا استعرتْ
وحـامَ طيرُ الـرَّدى بالمعشـر النُزُلِ
ينـال بالسيف مـا تعيا السيـوف بـه
وبـالنبـاهــة مـا يعي ذوي الحيــل
زنت الخـلافـة مـذ ألبستَ خلعتهـا
وزدت دولتهــا عــزاً على الـــدول
لـولاك كـانت بـلا جيدٍ ولا جَيَـدٍ
ولا جنـــونٍ ولا كُحـلٍ ولا كَحَــلَ

أي عندما يكر الامام العزيز على الأعداء، وتستعر

نيران الحرب منذرة الأعداء بالموت، فأنه ينال غايته بالسيف كما ينال قصده بالتدبير والنزاهة من جهة أخرى، وأنه خلع من زينته على كرسي الخلافة مذ أن جلس عليها ما جعل دولته ترتفع فوق كافة الدول، ولولاه لكانت كالعنق الجميل بلا حلية أو ذهب، أو كالجفون الناعسة بلا كحل.

وقال:

علوت إلى أن أيقنت كل مقلةٍ
بأنك نجمٌ في ذرا الأفق ناجِمُ
وجدتَ إلى أن ظنَّ كل موحد
بأنك للأرزاق في الناس قاسم
ولو قد رأى إسراف جودك حاتم
للامك في الاعطاء كعب وحاتم

أي تعاليت في سماء المجد حتى ظنَّ اكثر الناس انك أصبحت نجماً، وأعطيت حتى خيل لكل موحد بأنك أنت قاسم الأرزاق، وأن حاتم الطائي وكعب وهما من أكرم العرب، أنهما لو رأيا جودك لما كانا استثنياك من اللوم على الجود والاسراف.

## الرثاء ومؤثراته في شعره

الرثاء في الشعر العربي من أكثر الفنون تحريكاً للشعور، وإثارة للعاطفة، وتحريكاً لخلجات القلوب، بل هو البكاء، والندب، والتفجع، وتعداد المزايا، والمآثر للميت المفقود، وغالباً ما تكون جودة الرثاء بنسبة مركز الفقيد الاجتماعية أو مكانته، أو بما له من صفات طيبة، وخلال كريمة، أو بحكم الصلة، أو القرابة، أو الفضل.

وتميم له جولات موفقة، وآيات رائعة في مجال الرثاء وعلى الأخص برثائه لأخويه الأميرين عبد الله وعُقيل، ففي هذا المجال تتجلّى قوة عاطفته، ورقة شعوره، وغزارة دمعته، ولواعج حزنه وألمه لفقدهما وهو يصورهما شابين في ميعة الصبا والشباب يغتالهما الموت على حين غرة دون رحمة أو شفقة، وهكذا كان أسفه على والده الامام المعز لدين الله وعلى أجداده أهل بيت النبوة الذين نزلت بهم النكبة في كربلاء... ونلاحظ أنه كان في مراثيه صادق الشعور، وفي الاحساس يرسل أشعاره دون

كلفة فتأتي واضحة جلية يغلفها الحزن بوشاحه، ويلفها الألم بردائه.

يقول:

كيف لا تعدم الجسومُ القلوبا
وترى نضرةُ الوجوه شحوبا
من يعزِّي الجياد أم من يسلِّي
مجلس الملك والسرير الكئيبا
فقدوا بعدك القلوب اللواتي
شفُّها واجب فشقوا الجيوبا
وامعزاه وامعزاه حتى
يفتدي الدمع بالدماء خضيبا
فليذق غيريَ الحياة فأني
لا أرى للحياة بعدك طيبا

إنها أبيات قليلة العدد، ولكنها وافرة المعاني، ففيها التعبير الصادق، والافصاح عن الألم، وبيان اللوعة والأسى، تميم يبكي بمقطوعته هذه والده الامام المعز لدين الله، ويبدو أن الحزن أمضه، وجعله يتساءل بألم؟ كيف أن القلوب لم تفارق الأجساد، وكيف أن الوجوه لم يتسرب اليها الشحوب؟ وينتقل ليرسل نداءه قائلاً: وامعزاه ويكررها حتى أصبح لا يرى الحياة،

وحتى يصبح الدمع ممزوجاً بالدماء، وأخيراً يتمنى الموت بعده، لأنه لم يعد يرى لذةً في البقاء.

ويقول:

ثوت ليَ أسلافٌ كرام بكربلا
هـمُ لثغـور المسلمين سدادُ
أصابتهم من عبد شمسٍ عداوةٌ
وعاجلهم بالناكثينَ حَصَادُ
فكيف يلذُّ العيش عفواً وقد سطا
وجار على آل النبي زيادُ
تُداس بأقدام العصاةِ جسومهم
وتدرسهم جردٌ هناك جِياد
تضيمهمُ بالقتل أمة جدهم
سفاهاً وعن ماء الفرات تُذاد
فلهفي على قتل الحسين ومسلمٍ
وخزيٌ لمن عاداهما وبعاد
ولهفي على زيدٍ وبثاً مردداً
إذا حان من بثِّ الكئيب نفاد

يذكر تميم هنا أجداده الذين سقطوا قتلى في كربلاء، وقد كانوا ذخراً وقدوة للمسلمين، وإذا كان قد أصابهم ما أصابهم فبتدبير من أبناء عبد شمس وذراريهم

الذين نكثوا العهد، وخانوا المواثيق، وانقلبوا على الحق، وبعد كل هذا يتساءل: كيف يلذُّ لي العيش بعدهم، وبعد أن سطا وجار عليهم زياد، وداس بأقدام العصاة أجسامهم، ومزقتهم الخيول بسنابكها، والغريب أن أمة جدهم النبي محمد هي التي قاتلتهم ظلماً وعدواناً ومنعتهم من الشرب من ماء الفرات، وأخيراً يتلهف على مقتل الحسين وزيد ومسلم وبقية الشهداء في كربلاء.

وقال:

كلُّ حيٍّ إلى الفناءِ يصيرُ
والليالي تَعِلَّةٌ وغرورُ

وإلى الله يرجع الملكُ والمُلكَ
ويفضي الأمير والمأمور

وإذا لم يكن من الموتِ بدٌ
فطويل الحياة نزرٌ حقيرُ

أيَّ خطبٍ أرى وأيُّ ليالٍ
دهم الناس صرفها المحذور

كيف لم تسقطِ السماء على الأرض
ولم تهوِ شمسها والبدور

يـوم مـات الأميـر بـل يــوم مـات

الصبـر فيه بـل يوم مـات السـرور

يــوم أبكى الـعيــون حـتى بـكــاه

الأسـدُ الـوَرد والغــزال الغـريــر

وسـمعـت الــزفيـر وهــو صــراخٌ

ورأيــت الــدمــوع وهـي بــحــور

يــا أخي إن بكتــك عيني فــانـي

بــالبكــا والأسى عليـك جــديــرُ

فــالـصبــاح الأغــر لـيــلٌ بـهـيـمُ

عنــد فقــديــك والــديــار قـبــور

تميم هنا في مرثيته لأخيه الأمير عبد الله يورد الحكم التي سبق أن رددها غيره من الشعراء. فيقول: بأن نهاية كل كائن حي مهما طال أمد عمره إلى الموت، فلا بد من عودته إلى الله مهما لبث في هذا الكون، وينتقل بعد ذلك ليصف هول الفاجعة التي أدمت القلوب، فيتساءل مستغرباً: كيف لم تسقط السماء على الأرض؟ بل كيف لم تهوِ الشمس والبدر من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم الرهيب الذي بلت فيه الدموع الثرى، وطبقت الصدور على القلوب، وسقطت العمائم عن الرؤوس، وانقلب الزفير إلى صراخٍ وعويل،

والدموع إلى بحورٍ وأنهار؟ وينتهي أخيراً من هو الذي يحل محلك في قلبي يا أخي، فالبكاء والحزن أصبحت جديَراً بهما بعدك والصباح بعدك يتراءى لي ظلاماً، والديار لا أرى فيها إلاَّ القبور.

وقال:

قسمــةُ المــوت قسمــةٌ لا تجــورُ
كــل حيٍّ بكــاسهــا مـخـمــورُ

يستــوي كــل من تفــاوتَ فيهــا
لا أمــيــرٌ يــبــقــى ولا مــأمــور

أين قـومي الألى الـذين بهم كـان
يـمـوتُ الخنــا ويحيــا الفـقيــرُ

فــرقـتَّهـم يــدُ الـمنـونِ فـبــادوا
وحَــوَتهم بعــد القصــور القبــور

وأصــابــت يــد المنــون عقيــلاً
وهــو مثــل القضيب غضٌّ نضيــرُ

كـان عفَّ الضمير عـذب السجايـا
لــيس فــي سرِّ أمره تــعــســيــر

كـنـت قـدمـاً أظـنَّ أنـي جليــدٌ
ليس يلوي عــزيـمتـي المحــذور

فــأراني ممَّــا بــلا الصبــر عـيــاً
أيُّ قـلبٍ على الـخـطوب صبــورُ

يستهل تميم مرثيته برثاء أخيه عقيل بقوله: أن قسمة الموت عادلة، وحكمته متساوية، وكل انسان ينال منها ما يستحقه فالمساواة على الجميع، إذ لا يبقى أمير أو مأمور إلَّا وتناله، ويتذكر قومه الألى الذين هم عون الفقير، والقضاء على الرذيلة أين هم الآن؟ فلقد فرقتهم أيدي المنون ولم تبق منهم أحد. فبعد القصور أصبحوا في القبور، والآن يصيب الموت عقيل وهو غض الإهاب، وفي ريعان الشباب لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ويصفه بأنه كان عفوفاً ذو خلال عذبة لا يعرف التعقيد في حياته، ويذكر أخيراً ما أصابه من حزن وأسى عليه مردداً بأنه كان قديماً يعتقد أنه يملك الصبر والجلد على النوائب، وان الأقدار لا تستطيع أن تلوي عزيمته، ولكن ثبت لي أن هذا المصاب جعلني غير قادر على تحمل الخطوب، كما أفقدني الصبر.

وقال:

ذكرتك بالريحانِ والراح ذكرةً
مرددةً كادت لها النفس تُزهق
فلمَّا تناولنا الغناء شوادياً
واتبع مزموماً من الضرب مطلق

تتبعتِ العينـــانِ شخصــك فيـهم
فلمَّـا نـأى ظلَّت دمـوعي تـرقــرق

إلى الله أشكـو فقدهـا مثلما شكـا
إلى الله فقـد الماء عـطشان مـوثق

كـأنَّ فوآدي منـذ بـان بهـا الـرَّدى
جنـــاحٌ وَهَتْ أجــزاؤه فهـــو يخفقُ

تميم هنا يرثي مغنية كانت تطربه بأغانيها الشجية في الليـالي العابثـة وتسمعه الألحـان العذبـة... أنه يذكرها في ليلة عابثة ماجنة كان الراح هو تسلية روحه وفاكهته اللذيذة الشهية، وعندما يصل إلى هذا الحد يأخذ بوصف الغناء والطرب وعزف الآلات، وينتهي إلى القول بأنه جال ببصره في كل مكان فلم يعثر على تلك المغنية، فعادت عيناه تترقرقان بالدمع فإلى الله يشكو فقدها كما يشكو العطشان الماء، وان حالـه منذ أن فارقها كجناح واهي الأجزاء يخفق من الضعف.

وقال:

كـلُّ سيوف المـوت عضبٌ حسـام
إذا غــدا كــل حـــسـامٍ كهـــام

ولـــلردى داعٍ إذا مـــا دعـــا
جـــدَّ ولـــم يـــرعَ لـــخـــلق ذمـــام

لله مـا بـان بـه يـومـهـا
من رقـة الظرف وحسن الـوسـام
كـانت رضـا النفس ونيـل المنى
ولـذة الـعيش وطـيب الـمـدام
لهفي على مـا فـات من قـربهـا
لهفـاً لـه في كـل عضـوٍ سقـام
لم أدر في حبي لـهـا مـا الأسى
ولا تـطعـمَّـتُ الـيـم الـغـرام
أنـعي إلـى الاطـراب أخـلاقـهـا
ولـذة الايـنـاس يـوم الـنـدام
أنـعي إلـى الاحسـان إحسـانهـا
وشـدوهـا العـذب كسجـع الحمـام
يـا حـبـذا وصلك لـو لـم يـبـن
وحـبـذا قـربـك لـو كـان دام

يرثي تميم جارية لطيفة كانت عنده، وقد ماتت فجأة فحزن عليها حزناً شديداً، وأخيراً رثاها بقصيدة عامرة بالتفجع والعاطفة والشعور فقال:

إن سيف الموت قلَّما يخطىء الهدف، والموت عندما يجرِّد سهمه، ويدعو داعيه لا يرعى حرمة ولا ذمام وينتقل ليصف ظرفها وحبه لها فيقول: كانت منى

لنفسي، ولـذة لعيشي، بـل هي المـدام التي كنت أحتسيها في الليالي المقمرة الصافية، وكانت ريحـانة لسمعي، والسنا لمقلتي، فلهفي عليها وعلى طبـاعها الخالية من كل عيب وشائبة، ويضيف، بأنه مذ عرفها في عهد الحب لم يعرف أي معنى للأسى أو العذل أو الخصام، فهي لم تتجنى يوماً عليَّ، ولادعاها التيه لأن تظهر الملام، أو تبدي الصلف والـدلال، فأخـلاقها كالشهد المعسول، وعشرتها كالروض الجميل، واني إذ أصف أنسها وأخلاقها في مجالس الشراب فلا أزيـد على قولي بأنها كانت كأوتار العود، أمَّا شدوها فأحلى من سجع الحمام، فيا حبذا لو أن وصلها لم ينته، وقربها دام لي.

## خمرياته ومجونه

للخمرة أثرها الأكبر في شعر تميم، فهو قد أحبها، واعتقد بأنها تسمو بروحه حتى تصبح في نجوة من قيود الجسد، ولم يقف حبه وغرامه بها عند حد، فهو قد أحب طعمها اللذيذ، ولونها الصافي، والقدح الذي توضع فيه، ودنها المليء وكان يجد السعادة في مجلس الشراب بين الصاحب والنديم تقدم له الكؤوس من يد ساق أحور العينين ممتليء الردفين، أو فتاة مياسة القد ناهدة الثديين. وكان تميم يدعى إلى تلك المجالس بالنظر لما اختص به من حلاوة اللسان، وسرعة الخاطر، وخفة الروح فينسى هموم الحياة، وشؤون الخلافة، ويرتمي في أحضان الأنس، وشفتي الكأس مستهتراً بالقيم، ضارباً بالعادات والتقاليد راضياً لنفسه الحرية والعنان، مبتعداً عن الناس إلاَّ فئة من أصحابه سكن اليهم، وارتاحت نفسه إلى مجالستهم في منزله، أو في حديقته في ضوء القمر، هائماً معهم في ضواحي

القاهرة المعزية على ضفاف النيل الوادع بين الحدائق الوارفة الظلال، وفي فيء عالم الروح واليقين، حتى إذا استيقظت في نفسه نوازعاً أرسل شعره نغماً صافياً، فإذا الصور الجميلة حيَّة تعبر عن نفسه الحائرة الهائمة بين ملتف الغياض، ويانع الرياض.

والخمريات فن قديم من فنون الشعر العربي، وباب من أبوابه المحببة للقلوب، وقد اشتهر به شعراء كثيرون في العصر الجاهلي وما بعده، وهو يشكل ارتباطاً وثيقاً بالمجون، فكلا الاثنين من منبع واحد، وأصل واحد، وكلاهما يشكلان الخروج على التقاليد والعادات، والآداب العامة السائدة في تلك العصور، وانجرافاً نحو هوى النفس، وملذات الحياة. وعرف العصر الفاطمي في مصر بترفه، ولهوه، وخمرياته، ومجونه، لأن الحرية الفردية كانت سائدة خلال تلك الفترة، والتطور نحو التجديد آخذ بالنمو، بل ربما كان يطغي على البيئة، ويوجهها في طريق الانعتاق والتحرر، ولهذا اتسع ذلك الباب، ودخله العديد من الشعراء، وتفيأوا محرابه، ينظمون القصائد والمقاطع التي جاءت معبرة عن واقع البيئة، وحقيقة الحياة.

وعاش تميم تلك الحياة العابثة الصاخبة، وانخرط

في مجالها، يعبّ من المعين المتدفق، ويعطي للشباب الغض العنان لخوض المعارك في الميدان الواسع، وحلق في الأعالي يرسل الأغاريد الشجيَّة، والقصائد البديعة، فأجاد وأحسن وفاق كل شعراء عصره في وصف الراح، والساقي، والنديم، ومجالس الأنس، وكؤوس الخمر، والموائد التي زخرت بكل ما لذ وطاب، وقد كان في تعبيره صادق الشعور والاحساس، قوي الخيال، رقيق العاطفة، أو قل عنه الشاعر الذي تذوق النعيم، والجمال، واللهو، والترف، ونبض بالشعور الفياض، والقلب الخافق بالحياة، يقدم الصور الواضحة، والفنون الجميلة، والمقطوعات الرقيقة، بأسلوبه البراق الرائع الذي يكسوه اللون القصصي، والحوار الممتع، والتشبيهات الفنية الجذابة.

لقد سبق أن ذكرنا، أن حياة مصر في عهد الفاطميين قد تطورت تطوراً ملحوظاً عن ذي قبل، فكثر اللهو، والمجون بتأثير هذا التطور الذي ساد الحياة الأدبية، وقد كان للثراء العاجل، ولمظاهر الجاه أكبر الأثر في توجيه الحياة تلك الوجهة، ولهذا جاء شعر شعراء مصر أصدق مرآة لتلك الحياة العابثة الثائرة، فكان فياضاً بوصف مجالسِ الشراب واللهو، وغزل

المذكر حيناً، والمؤنث حيناً آخر، ومهادات الغلمان، والجواري، والدعوات للاستمتاع بلحظات يختلسونها في اللهو والشراب والمجون ضمن الحانات، وأماكن اللهو، وانتهاباً للذات، وعبثاً في مجال الحب والخمرة، وأننا لا نستطيع أن نجد شاعراً من شعراء تلك الفترة لم يأخذ بنصيب وافر من حياة المجون والخمرة، ويجب أن لا يغرب عن بالنال بأن شعراء ذلك العصر شاركوا بالانغماس في الحضارة، وشاركوا في إقامة دعائمها القائمة على اللهو الخليع، والمجون السافر، ممَّا مكنهم من تصويرها في جميع أوضاعها، من مظاهرها الرائعة إلى مباذلها الوضيعة، ودعوا إلى متع الحياة، وحسنوا المجون والخلاعة في صراحة مكشوفة وعري فاضح، وابتذال مهين.

وبرز تميم في ذلك المجال دون رادع، فتخطَّى الصفوف، وسار في الطليعة ينحني أمام أوقات اللهو، والشراب، وسماع الأغاني، والعزف، والموسيقى، وإجابة متطلبات الحب.

كان تميم مبدعاً ومتفوقاً عندما يصف حياته، ومجونه وخلاعته، وقد نشعر ونحن نسير معه في هذا المجال، أننا أمام شاعر عرف الجمال، وعشق الحسن،

فخلع عليهما من روحه، وسكب عليهما من دمه، ولم يكن يحلِّق في الأجواء إلا بعد أن تستولي عليه نشوة الحب، ويتخدر بخمرة الجمال، وهنا لا بد من التساؤل فيما إذا كان تميم راضياً في قرارة نفسه عن هذه الحياة؟ وهل لم يتعرض لصراع نشب بين قلبه وعقله؟ لقد كان عليه أن يتمسك بأهداب العقل، ويعود إلى الفضيلة يفيء إلى ظلالها، ناسياً حديث الصبابة والمجون، والاسفاف، والتبذل... أنه من بيت الخلافة... انه ابن إمام، وأخ للامام الذي نصب نفسه قدوةً وإماماً للمسلمين، وفي هذا كفاية، وفي حياة تميم يبدو أن انتصار العاطفة على العقل كان يأخذ دوره الأول، وعندئذٍ تنتحر القيم والأخلاق أمامه، ويذهب مجد الأسرة الحاكمة العريقة، وتهبط سمعة الخلافة... فهل لكل هذا ما يبرره؟.

أجل... كان تميم شاعراً... وللشاعر حريته وهوايته، فهو لم يخلق إلاَّ للتغني بالحسن، وعبادة الجمال، وتمجيد الملاحة، وأي انسان لا يهوى الجمال ويسبِّح له، بل أي شاعر لم يعبد الحسن ويقدسه، ويفيء إلى ظلاله؟

وأخيراً... هكذا قدر لتميم، وهكذا ألزمته الحياة

بكتابة صفحات الحب والجمال، والتحليق في الأجواء حيث المجال الواسع للغناء والانشاد، ولم يرض باليسير من الأمنيات، ولكنه أسرف في الغزل الماجن، والقول العابث، والدخول إلى الحانات، وأماكن اللهو في الليالي مع رفاقه، يطلق لنفسه حريتها الجامحة، ويلبي متطلبات الشباب، وكأنَّ عاطفته الجياشة الدافقة أبت أن تتقيد بالقيود الثقيلة، وتمتنع عن انتهاب اللذات والعب من معينها العذب.

والآن:

فإلى حانات تميم، ومجالسه، وسقاته، وندمانه نرتادها معه، ونكحل أبصارنا بصورها، وألوانها الفاتنة.

يقول:

| | |
|---|---|
| وشادنٍ شرط الصبا مرهفٍ | قـرَّة عيني من تمناهُ |
| كأنما الحسن رأى وجهه | إليه محتاجاً فأغناه |
| فانتثرت بالغنج الفاظهُ | وانكسرت باللحظ جفناهُ |
| وتبق الأرداف فاستثقلت | وأرهف الخصر وأضناه |
| زرنا به منزل خمّارة | والليل في صبحٍ برياه |
| وقد علا الأفق هلال بدا | لعطفة الحاجب محناه |
| حتى إذا الخمّار أصغت إلى | صحابنا في المشي أذناه |
| قام الينا عجلاً شاغلاً | بالراح يمناه ويسراه |

فقام بالكأس هضيمُ الحشا | لـولا قبـاه لشـربنـاه
كـأنهـا في كفـه خـدُّه | لكنهـا في السكـر عينـاه
ولم نزل في بيت خمارنا | نشـربهـا شهـراً ومتنـاه
إذا أشاب الصبح رأس الدجى | وهـزّنـا السـاقي أجبناه
نحبوا إذا نادى إليه كما | حبيـو إلى الـوالـد أبنـاه
ما كان أبهى حسنُ أيامه | فـينـا وأحـلاه وأهنـاهُ

يصف تميم حبيبه الذي هو كالظبي الصغير الذي يتمنى وصـاله كـل من يراه، فغنـج ألفاظـه، وتكسر لحاظه، ولمعان ثغره، وظهور أردافه، ورقـة خصره، كلها تجعله مستوفياً الشروط الجمالية، وينتقل ليصف لنا ليلة قضاها مع هذا الظبي الجميل، وكيف قاده إلى إحدى الحانات، في ليلة من لياليه العابثة، عندما كان الهلال لا يزال في بدء طلوعه منحنياً كالحاجب، وكيف أن الخمّار نهض على عجل لاستقبالهما، وكيف جاء بالخمرة المعتقة الصافية، التي سمت على المساومة، لأن أحداً لم يسمها قبل، وكيف يسام من ثقله يفوق الدر والتبر، ثم ينتقل ليحكي لها، كيف أن الخمّار غاب قليلاً وأحضر الدن، وكيف كان الحبيب يعاطيه الكأس والقبل إلى أن ينتهي إلى القول: بأنه لم يزل في الخمّارة يشرب حتى ظهر الصباح، وحينما أيقظه

الحبيب وكان في غفلة تحت تأثير الجمال، وكيف أنه
ناداه فجاء نحوه يحبو كما يحبو الولد نحو والده، أنها
أيام حلوة تلك، وانه لحبيب بهي وشهي ذلك الحبيب.

وقال:

ولي صاحبٌ لا يُمرِضُ العقل جهلَه
ولا تتــأذى النفس منه ولا القلبُ

إذا قلت لا في قصة لم يقل بلى
وإن قلتُ أصبو قال لا بد أن أصبو

وإن قلت هـاك الكأس قـال مبادراً
ألَّا هـاتهـا طـاب التنـادُمُ والشـربَ

غـدوتُ بـه يـومـاً إلى بيت حـانـةٍ
وللغيم دمـعٌ مـا يكفُّ لـه سكب

وقـد نفحت ريـحُ الصبـا بمنـافسٍ
عبيـرية الأنفـاس طاب لهـا التـرُب

فــأفضى بنــا الإدلاج بعــد تعسفٍ
إلى زولــةٍ شمـطاءَ منــزلهـا رحب

فقـالت لنـا أهـلاً وسهـلاً ومـرحبـاً
وقـلَّ لكم مني البشـاشـة والـرحب

من أنتم؟ فقلنا عصبة من بني الصبا
دعاهم اليك القصف والعزف واللعب

فقالت: على اسم الله حطُّوا رحالكم
فعندي الفتاة الرؤد والأمرد الـرطب
وراحٌ نفى اقـذاءهـا طـول عمـرهـا
فجاءت كما يُـذري مدامعـه العتبُ
فقلنــا لهـا: هــاتي بهــا وتعجَّلي
ولا يك فيما قلت خلفٌ ولا كذب
فجـاءت تجـرُّ الـزِّق نحـوي كـأنـه
على الأرض زنجيٌّ بلا هامـةٍ يحبو
وطـافت بها هيفـاء مخطفـة الحشـا
معـاطفهـا سلم وألحــاظهـا حــرب
تمـايـل ردفـاهـا وأدرجِ خصــرهـا
ليـانـاً ولـطفـاً مثلمـا تـدرج الكتب
شكــا كشحهـا الـزنَّـار ممَّـا يجيعـه
وضـاق بها الخلخـال وامتلأ القُلب
أحلَّت لي الصهبـاء تقبيـل وجههــا
وما كان قبل السكر في لثمه عتب
سـلامٌ على ديـر القُصيـر ومـرحبــاً
بــه فله مني التـخصص والـقــرب
فـكـم لــذةٍ فـيــه قـضـيـتُ وغـلـة
شفيت ولا واشٍ علينــا ولا شغب

هنا يصف لنا تميم ليلة من الليالي العابثة الماجنة بقوله: لي نديم حلو المعشر مطواع، لا تتأذى من عشرته النفس، ولا يمله القلب، فهو لا يخالف لي أمر، بل على العكس يلبي طلبي بسرعة، وكم تهون عليه الصعاب في سبيل صداقتي، وينتقل بعد هذه المقدمة ليصف لنا ذهابه إلى دير القصير في ساعة مبكرة من الليل حينما كانت الغيوم تجود بقطرات المطر، وريح الصبا يحمل أنفاس العبير، وبوصولهما إلى المكان المقصود طلعت عليهما منه امرأة ظريفة متقدمة في السن تقول لهما: أهلاً وسهلاً ومرحباً... من أنتم؟ فأجابها: نحن من أهل الهوى والصبا جئنا لننعم بالقصف والعزف والشراب واللعب فقالت: على اسم الله حطوا الرحال، فعندي كل ما تشتهون من خمر وغيد وغلمان، ثم غابت وجاءت تجرُّ وراءها دناً من الخمر الذي هو أشبه بالزنجي يحبو على الأرض بلا رأس، وعندما صبَّت الخمرة منه تلألأت في الكأس كأنها السراج أو السلك المؤلف من حب البرد، وجاءت بفتاة هيفاء ذات معاطف رقيقة والحاظ حربية، وردفان يتمايلان، وخصر رقيق جعل الزنار يشكو من ضمرره، كما يشكو الخلخال من امتلاء الساق، وبعد أن دارت الخمرة في رأس تميم قبلها، إذ لم يكن يجسر على

تقبيلها قبل أن يشرب، وبعد القبلة كان ما كان. . .
وينتهي تميم من قصته بان يخاطب (أبا حسن) وهو لقب الساقي لكي يستمر باعطائه المدام، فالمشرق على حد تعبيره ظهر، والفجر انبثق والشي في رأسه، والثريا بدت وكأنها تخبو رويداً كأنها المصابيح الخافتة، وأخيراً: يحي تميم دير القصير ويذكر الأيام الجميلة التي قضاها في ربوعه مع ندمانه وأحبابه حيث لا واشٍ، ولا رقيب.

وقال:

وزنجيةُ الآباء كرخيّةُ الجلب
عبيرية الأنفاس كريمة النسب
كميت نزلنا دنها فتفجرَّت
بأحمر قانٍ مثل ما قُطر الذهب
فلمَّا شربناها صبونا كأننا
شربنا السرور المحض واللهو والطرب
كأنَّ كؤوس الشرب وهي دوائر
قطائع ماءٍ جامدٍ تحمل اللهب
يمدُّ بها كفاً خضيباً مديرها
وليس بشيءٍ غيرها هو مختضب

فبتنا نُسَقى الشمس والليل راكد
ونقرب من بدر السماء وما قرب

وقد حجب الغيمُ الهلال كأنَّه
ستارة سربٍ خلفها وجه من أحب

كأنَّ الثريا تحت حلكة ليلها
مداهِنُ بلورٍ على الأفق يضطرب

فبتُّ أناجي البدر وهو منادمي
وأشرب باللثم العقار من الشنب

يقول:

إن ضيفته في تلك الليلة امرأة حسناء ذات أنفاس كالعبير، فهي تنتسب إلى الزنج بالرغم من أصلها من الكرخ، ففي تلك الليلة شربنا خمرة ذات شعاع أحمر كالذهب الخالص، ولم يلبث أن استولى علينا الطرب وذهب عنَّا الوقار، وقد كانت الكؤوس وهي دائرة تشبه برك صغيرة من الماء في أعلاها لهب مشتعل، فكان يقومها لنا الساقي بيده المخضبَّة، ولقد بقينا على تلك الحال نشرب ونسقي الفتاة الجميلة حتى حجب الغيم الهلال، وبدأت الثريا تأخذ طريقها نحو الغروب كأنها قطع من البلور أخذت ترقص مضطربة على فسحات الأفق.

وقال:

دع مقال العاذلاتِ وآلهَ عن سعي السُّعاةِ
واشرب الراح وشُبهها بالثنايا العطراتِ
وانتقل إن شئت تفاح رياض الوجناتِ
أنا ما بين نداماي وراحي وسقاتي
ثملٌ لا أعرف الصحو ولا وقت الصلاةِ
وإذا نومني السكر على تلك الهباتِ
لم ينبهني سوى حسٍّ مثاني الغانيات
وغناهنَّ سحيراً سقِّنيها بحياتي

يطالب بترك كل ما يقوله العذال، والرقباء، والساعون بالنميمة، والانصراف إلى شرب الخمرة من الثغور العبيرية الأنفاس، واقتطاف التفاح من الوجنات الوردية، وينتقل ليقول عن نفسه:

أنني أعيش بين ندامى الراح والسقاة سكراناً لا أعرف الصحو حتى ولا أوقات الصلاة، وعندما أنام من السكر على تلك الحالة، فلا ينبهني سوى مشي الغانيات وغنائهن في السحر، وطلبهن المزيد من الشراب.

ربَّ ليلٍ مستطابٍ بات بالبدر متوَّجْ
بت أسقى الراح فيه من يدىْ أحور ابلج

مـرضـت عيـنـاه حتى     أمـرضت صبري فـأنبهج
لـكمـا أودعـتُ لـثمـي     صحنَ خـديـه تضـرَّج
ونجـومُ الليـل تحكـي     لـؤلؤاً فـوق بـنـفسـج

أي في ليلة سطع بدرها شربت الخمرة من يد غلام أحور صبوح الوجه له عينين ناعستين مريضتين فكنت أمعن بخديه تقبيلاً وهو يتضرج بالدماء من الخجل، في ذلك الوقت كانت نجوم الليل تسطع بأنوارها وكأنها اللؤلؤ فوق زهر البنفسج.

وقال:

أيـا ديـر مـرحنًّا سقتـك رعـودُ
من الغيث تـهمي مـرةً وتـعـود
فكم واصـلتنـا فـي ربـاك أوانسٌ
يـطغن علينـا بـالمـدامـة غيـد
وكم ناب عن نور الضحى فيك مبسم
ونـابت عن الـورد الجني خـدود
ومـاست على الكثبان قضبـانُ فضةٍ
وأثقلنها     من حـملهـنَّ نـهـود
ليـالي أغـدو بين تـوبي صبابـةٍ
ولـهـوٍ وأيـام الـزمـان هـجـود

وإذ لمتي لم يـوقظ الشيبُ ليلهـا
وإذ أثـري في الغـانيـات حميـدُ

يخاطب هنا دير مرحنا الذي كان يختلف إليه مع رفاقه وندمانه لقضاء الليالي الماجنة، فيتمنى له الازدهار والطل والندى والغيث، ففي هذا الدير واصلته الحسان وسقته الخمرة الغانيات، وكم تمتع بالمباسم المنورة، والخدود الوردية، والقدود الفضيَّة، والأرداف المليئة المتمايلة التي كثيراً ما تعبت من حمل النهود، وينتهي أخيراً إلى القول بأنها ليالٍ جميلة من ليالي العمر كان يلهو ويشرب ويسمع فيها. وكانت عوادي الأيـام في غفلة عنـه، والشيب لم يتسـرب إلى لمتـه، وذكـراه محمودة بين الغانيات.

وقال:

قد اجتمع البستان والروض والخمر
وحُـركتِ الأوتـارِ وارتفـع الـزمـرُ
فما لك لا تغـدو إلى الراح غـدوةً
يبيحك فيها كـل ما تشتهي السكـر
هــل الـعيش إلاَّ قـينــةٌ ومــدامــةٌ
وسـاقٍ مليـح ليس يُعصى لـه أمـر
فبـادر بقايـا العمـر مـا دمت قـادراً
ومـا جرَّ ارسـانَ الحياة لـك العمر

بفتيـان صـدق من نـداماك ســادةٍ
إذا مـا انتشوا لم يجـر بينهم هَجر
كــرامٍ ظـرافٍ لا يُمـلّ حــديثهم
ولا يعتــريهم في مجــالسهم كِبــر

في بستان تميم اجتمع الجمال والخمرة، وتحركت الأوتار بالانغام العذبة، ودارت الخمرة في الرؤوس، فلم لا تذهب أيها النـديم إلى طلب اللذات مبكراً، وتتنـاول الراح بمعـزلٍ عن الرقبـاء في هذه الأمكنة الخالية، فهل العيش إلّا بخمرة وفتاة وساق جميل طوع البنان، فلنبادر إلى اقتطاف ثمرات الحب ما دام العمر يسمح لنا الآن مع ندامى صادقين كلما شربوها ازدادوا حشمة وأدباً فهم لا يهجروك، ويظلوا كراماً لا تمل من حديثهم، ولا تشعر بكبريائهم.

وقال:

أتنسى أيها العاتب ظلماً ليلة النهر
وكراتِ مجارينا من المختار للجسر
وقــد قــابـلك البـدر فــأخمـدت سنــا البـدر
ولاح الفجـر من وجهك في الليــل فـلا فـجــر
وفــي خــديــك مــارق عن التشبيــه بــالخمــر

والفـاظـك قـد عـطرّن　　حتى سمـك الـبحـر
وأضـنتنـيَ الـحـاظـكَ　　حتـى رحـتُ لا أدري
أسـقمٌ بـين أجـفـانـك　　أم كحـلٌ من الـسحـر
وقـد عـاطيتني كـاسـك　　مـمـزوجـاً من الـثغـر
إلى أن ملتُ واستقـليت　　لـلجنـب من الـسكـر
وتـبـنـا مـن تـدانـيـنـا　　عـلى أضيـق مـن فـتـر
مبيت الصـائم الغـرثـان　　وافـى لـيـلة الـفِطر
بـلا بـغـي ولا اثـم　　ولا فـحشٍ ولا نـكـر
فـلمَّـا طـلع الـصـبـحُ　　كتمت الصبـح بـالشعـرِ
وقـد ظـللّنـا الـغـيـمُ　　بمثل السـوسنِ النضـر
بـمـنـظوم مـن اللهـو　　ومـنـثـورٍ مـن الـقـطر

يظهر أن حبيبه عاتب عليه، فهو يذكره بليلة قضاها معه على جانب النهر، حيث ركبا قارباً في النيل أخذهما جيئةً وذهاباً، وكان البدر في كبد السماء يرسل خيوطه الفضيَّة فتنطبع على صفحات الماء، ولكن أنوار وجه الحبيب طغت على هذا المنظر، وينتقل إلى وصف الحديث الذي كان يردده لدرجة أن أسماك البحر كانت تطرب له، وتصاب بنشوة، ويُصاب تميم أخيراً بسهام لحاظه، فيروح ولا يدري أهو صريعُ الألحاظ، أم صريعُ الخمرة، ثم يعاطيه الكأس ممزوجاً باللمس

المعسولة فيغيب عن العالم وينام، ولكن حبيبه نام أيضاً وكان بينهما مسافة قريبة، وهنا يستولي عليه السرور ويشعر كما يشعر الصائم بدنو ليلة الفطر وذلك من شوقه، ولم يقترف البغي أو الفحش في تلك الليلة، ولكن عندما طلع الفجر وحجب نوره شعر الحبيب وكان الغيم كالسوسن الريَّان فاللقاء كالنظم من اللهو، وكالنثر من القطرات الهابطة من ثغر الحبيب.

وقال:

خليليَّ لا عيشٌ سوى اللهو والصبا
ولا لهوَ إلَّا في سماعٍ وفي خمر
فحثَّا كؤوس الراح صِرفاً فأنني
أرى الدهر صعباً لا يدوم على أمر
وأعطِ من العيشِ الشباب نصيبه
ولا تنتظر كثر البياض على الشعر
ترى البدر مثل البدر في صحن خدها
وتفترُّ عن مثل الجُمانِ من الثغرِ

الخطاب لخليليه، وهنا يذكرهما بأنه ما دام الدهر كعادته لا يدوم على حالٍ، فعلينا أن نستسلم لللهو والسماع والشرب صرفاً، فالدهر سريع التنقل وله ميلان

إلى الغدر، وما دام في غفلة عنّا الآن، بل ما دام الشباب يفسح لنا المجال فلننتهب اللذات قبل أن يهاجمنا الشيب، وبعد كل هذا يصف حبيبته مشبهاً الخال في صفحات خدها بالبدر، والفضة تشع من ثغرها.

وقال:

| | |
|---|---|
| يا ربَّ ليلٍ بته ناعماً | بين ربا المختار فالجِسر |
| أخرج فيه لِصَباً من صِباً | واستحث الخمرَ بالخمرِ |
| وعذبة الألفاظ معشوقة | ساحرة الأوتار والشِعر |
| راجحة الأرداف ممكورةٍ | طوع الصبا مرهفة الخصر |
| كأنما البدران في وجهها | فهي سماءُ الشمس والبدر |
| فلم أزل أشرب من كفها | واجتني الشهد من الثغرِ |
| حتى تضجَّعتُ وبي منها ما | بلحظِ عينيها من السكرِ |
| والبدرُ قد مدَّ على نيله | منطقةً من خالص التبر |

انها ليلة هادئة هانئة قضاها بين [المختار والجسر] وكانت معه فتاة جميلة عذبة الألفاظ ساحرة ذات أرداف ثقيلة وساقان ممتلئان، وخصر رقيق مرهف، وكانما القمر والشمس قد طلعا في وجهها، وقد ظلَّ الشاعر يشرب من كفها، ويجني الشهد من ثغرها حتى رقد

مطعوناً بلحظ عينيها، وفي ذلك الوقت كان البدر يمدُّ رواقه على النيل وينثر تبره اللمَّاع الخالص.

ويقول:

إذا رحتُ من سكرٍ غدوتُ إلى سكرِ
وأنفقت في لهوي وفي لذتي عمري
ولِمْ لا أجرُّ الذيل في ساحةِ الصِبا
وشرخُ شبابي قائمٌ ليَ بالعذر
ومعشوقة الألحاظ تهتزُّ للصبا
كما اهتزَّ غصنُ البان في الورق الخُضر
مهفهفةٌ صفراء إلَّا لآلِئاً
إذا ابتسمت بيضاً يلحنَ من الثغر
قطعتُ بها ليل التمام وبدره
إذا ما رآها ظنَّها غرة البدر

أي أنه لا ينتهي من سكر حتى يهرع إلى سكر ثانٍ، فهو ينفق كل أيامه في اللهو، والشرب، واقتطاف الملذات، وكيف يتوانى عن ذلك، وشبابه الغضُّ يمنحه المبررات، ويخلص بعد ذلك إلى وصف فتاة جميلة ذات قد كالغصن الرطيب، مهفهفة ذات ثغر وضَّاح يبدو فيه اللجين، وقد قضى معها ليلة ظلماء ولكنها حلَّت مكان البدر.

وقال:

لم بديــر القُصيــر لي من بكــورٍ
ورواحٍ عــلى الـصبــا والـعُــقــار
حيث أخلو بمـا أحبُّ من القصفِ
قــليــلَ الــوقــار لــســتُ أداري
كـم صبــوحٍ شــدوتــه بـغبــوقٍ
وظــلامٍ وصــلتــه بــنــهــار
انما الـعـيش أن تــروح عــشيــاً
قــاصفــاً عــازفــاً خليــعَ العــذار

هنا يعود إلى ذكرياته في دير القُصير، حيث الليالي العابثة التي تمتد حتى الصباح، فكم عاقر فيها الخمرة مع الندمان، وخلع صفات الحشمة والأدب غير خائف، وكم وصـل في هذا الـدير النهـار بالـظلام، والظلام بالصباح، وفي رأيه أن الحياة لا تكون هانئة إلَّا إذا كانت مهيأة للقصف والعزف والشرب في أماكن اللهو لدرجة الحرية وخلع رداء الحشمة.

وقال:

وقـام عليلُ الـطرف والوعـد متـرفٌ
عليم بتصــريف الكــلام وتشقيقــه

فتــوَّج يـمــنــاه بـكــأسٍ رويّــةٍ
وقــرَّط يُسـرى راحتيــه بـابــريقــه

وصبتَ وسقّــاني مـدامــاً كــأنهــا
تلهب خــديــه وطيبُ جنى ريقــه

وبــات يعــاطيني حــديثاً كــأنّمــا
جَنى من جنّي الروض زهرة تنميقة

هناك ساق عليل الجفون قام يسامره، ويعاطيه الكؤوس فكان يناوله باليمنى الكأس، ويأخـذ إبريق الخمرة باليسرى، وقد ظلَّ يسامره وينادمه، وهو يجني من حديثه ما هو أشهى من زهر الروض، وظلَّ على ذلك الحال.

وقال:

دعــوتــه لــوصــالي فــانثنى خجـلاَ
واعتــلَّ علة من لا يعــرف العللا

خــاف الـرقيب فقـالت عينُـه نعمـاً
ثم التــوى لفـظه عن مقلتيــه بِـلا

أشكــو إليـه فتــرثي لي لــواحــظه
حتى بدا الدمـع من عينيه منهمـلاً

فديت من لم يزل إن لاح شمس ضحى
وصيَّــر الغصن قـدا والنقــا كفـلا

رمى الــرقيب بعـينيــه فــأسكــره

عنَّــا ولم نخشَ تنغيصــاً ولا وجــلا

هنا يدعوه تميم لوصاله، فينثني خجلاً كأنه أصيب بعلة من الاصفرار، كان يخاف الرقيب حينما أجابت الحاظة بنعم ولكن فمه أجاب بلاء، وكان منظر عينيه وهي تلبي الطلب أجمل ما في الوجود، كما أن لفظه بالمنع كان يسري عن النفس الآلام. وكان يرسل الدمع وهو يشكو إليه، وينتهي إلى القول بأنه يفدي هذا الحبيب الذي يشبه الشمس جمالاً، والغصن قداً والذي إذا رمى الرقيب يسكره بالحاظه، وهنا يخلو لنا المجال.

وقال:

ومعشوقة اللّمى خنِث الجفــون

لَــذوبُ الــوعــدِ معتلُّ اليمــين

مـريضُ الطرف فنخنث السجــايا

يـكــاد يــذوب من تــرفٍ ولـين

أتــاني والــدجى حَـلِك المبــاني

كــأنَّ نــجــومــه زرق العــيــون

فــلمَّــا تــوَّج اليــســر بكــأسٍ

وصــار الــرطــلُ قُــرطــاً لـليمـين

سقـاني مثـل خـديـه مـداما
تلين جـوانـحَ الـظبـي الحـرون
كـأنَّ الـراح وردة جـلنـارٍ
تبـدَّت فـي غـلالـة يـاسـمـين

يصف حبيباً جميلاً يكذب بوعده، ولكنه مريض العيون يذوب رقةً وليناً، ولقد زاره في إحدى الليالي وكانت النجوم في كبد السماء كأنها العيون الزرق، فأعطاه الكؤوس باليمنى، وفي اليسرى أخذ الابريق، ويعترف الشاعر بأنه سقاه من خمر خديه خمرة تلين قلب الظبي الجانح، وكأن هذه الخمرة وردة حمراء ظهرت في دغلة من الياسمين.

# الفنون الشعرية الأخرى

عندما نرافق تميم في سيره، وندخل إلى عالمه الشعري المترامي الأطراف، نشعر بأننا أمام شاعر وجداني رقيق العاطفة، مرهف الحس، متفتق الذهن، يعبر عن نفسه، ويصف واقعه وحياته بالحانٍ عذبة، وأغاريد شجية ممزوجة بروحية اصيلة عميقة نابعة من عالمه التصويري البديع، تحملها أجنحة الخيال الرقيقة إلى عالم بعيد المدى، فتغيب في رحلة طويلة، وغيبوبة مملة، ثم تعود أخيراً من رحلتها الطويلة لتستقر في جوار الهدوء والخلود، وهي فرحة جذلى بلقائها الأهداف السامية، والمثل العليا.

أجل... غنَّى تميم الطبيعة الحانه الشجية، فسكب فيها عاطفته وروحه، وافتتن بحسنها، وجمالها، وآثارها ومظاهرها في الورد، والرياحين، والظل، والشمس، والشجر، والماء، وهذا الجمال الفتَّان دفعه

بكليته إلى الانجراف نحو الشرب والطرب، والغناء، ليشبع نفسه العطشى التي أظمأتها مفاسد الحياة، وتقلباتها، ومجتمعاتها الرديئة، فجاء أكثر شعره في الغزل، والتصوير، والوصف لمظاهر الطبيعة، والتعبير عن نفسه الصادقة الطروب بفصول من اللحن الشجي، والايقاع الموزون، والغناء الرقيق، واعتمد على الناحية الوجدانية، وعلى صياغة المعاني الجميلة، وإبراز الصور السحرية، والهواجس النفسية، والأحاسيس الرقيقة المتدفقة، وعلى الديباجة المرتكزة على الموسيقى والتمثيل والتشبيه.

وأرى أن من حق تميم أن يتبع هذه الأصول، ويحرص على تلك الفنون، أليس هو الأمير الفاطمي الشاب المنحدر من أشرف وأعرق بيوتات العرب؟ والابن الثابت النسب لأعظم خليفة في المسلمين؟ أليس هو الجالس على عرش الامارة الشعرية في المغرب وأرض الكنانة بعد ابن هانيء الأندلسي؟ ولماذا لا يتسم بالشاعرية المرهفة، وهو قد وضع لبنها صغيراً، وشبَّ على حبها كبيراً وما زال يتعبد الجمال في محرابها، ويصلي خاشعاً لوحيها والهامها؟.

وإذ كنا الآن في صدد المرور على فنون تميم

الشعرية الأخرى، واستعراضها بإيجاز فلا بد أن نرى قيثارة الفن الخالدة، ونسمع أصداء الألحان الشجية، فتميم سيشرق مع الفجر لينفح عطره وعبيره، وعند الضحى حرارته وقوته، ومع الأصيل هدوءه وجماله، ومع الليل سحره ورهبته، ومع السحر شدوه وغناءه، وأخيراً سينفذ إلى عالم فسيح تنفتح للحب وللجمال.

كنا ذكرنا أن تميم عالج في حياته القصيرة أكثر فنون الشعر، وحلّق في عالمها، وتفيأ ظلالها، ويبدو أنه كان في بعضها مقلاً، وفي بعضها مكثراً ومبرزاً، وتلك الفنون كانت سائدة في دولة الشعر في ذلك العصر، يطرق أبوابها الشعراء الكبار منذ عهد الجاهلية الأولى، وإذا رجعنا إلى ديوانه على الرغم من أنه جاء خالياً من كل شعره، فاننا نراه زاخراً بفنون الشعر كما ذكرنا من وصف، إلى غزل، إلى فخر، ورثاء، وإلى خمريات، ومجون، سكبها جميعها في ديباجة أنيقة، فراحت تصوِّر نفسه، وحياته اللاهية، أما حياته الحزينة الزاخرة بالآلام، والحرمان، والذكريات، فتبدو في كل قصيدة من قصائده، ولعل الباعث لذلك صدق شعوره، وسمو خياله، وروعه تعبيره، وتشبيهاته البديعة.

والآن فإلى فنون تميم الشعرية التي لم يرد ذكرها:

## - في الزهد -

لتميم بعض المقطوعات في الزهد التي لا تقل روعة وصدقاً عن شعر الشعراء الذين اشتهروا بالتمسك بأهداب الدين، والخائفين من عذاب الآخرة، وأنه لمن الغريب جداً اتفاق هذا الفن، مع فن الخمرة والمجون والحب... أجل... نراه أنه يدعو إلى الاخلاد للسكون، والتأمل، والتفكير في العالم الآخر، ومخافة الله، واللجوء إليه في الملمات، والتمسك بآداب الدين، وفرائضه، وآدابه.

يقول:

رجوتك يا ربِّ لا أنني  أطعتك طوعَ أولي الانتهاءِ
ولكنني مؤمنٌ موقنٌ  بانك ربُّ الورى والسماءِ
وأنك أهلٌ لحسن الظنون  وأنك أهلٌ لحسن الرجاءِ
وما ليَ يا رب من شافعٍ  اليك سوى خاتم الأنبياء
واني حنيفٌ بريءٌ اليك  من الشك والشرك والإعتداء

في هذه الأبيات يخاطب الاله، فيعلن طاعته، وإيمانه، واعترافه بأنه الاله القادر على كل شيء، الذي يملك الجدارة والأهلية لحسن الظن، والرجاء، ويخلص إلى القول بأن ليس له شفيع عنده سوى النبي

محمد وهو خاتم الأنبياء، ومع هذا فهو يملك البراءة من كل شك وشرك.

ويقول:

يا عجباً للناس كيف اغتدوا
في غفلةٍ عمَّا وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن
لهم على إحدى المعاصي ثبات
من شكَّ في الله فذاك الذي
أصيب في تمييزه بالشتات
يحييهم بعد البلى مثل ما
أخرجهم من عدمٍ للحياة

يبدي تميم استغرابه وتعجبه من الناس الذين أصبحوا في غفلةٍ عن ذكر الآخرة، والحساب، والعقاب، ويقول: ليتهم حاسبوا أنفسهم إذن لتغير رأيهم، فالشك بالله يقود إلى الدمار كيف لا وهو القادر على أن يحييهم بعد الموت، كما خلقهم من عدم.

## في الشباب والمشيب:

لتميم جولات موفقة في وصف شبابه الناضر، وأيام صباه الجميلة، وذكريات ربيع حياته الريَّان، وعندما يصف المشيب الذي ظهر في رأسه على حين غرة

يتحسر على الشباب الساحر، ويبكي على ذلك العهد الجميل.

يقول:

فلو كان الشباب يباع بيعاً لأعطيت المبايع ما يريد
ولكن الشباب إذا تولّى على شرفٍ فمطلبه بعيدَ

أي لو أن الشباب يعرض في أسواق المبيعات، إذن لاشتريت منه القدر الكافي، وأعطيت البائع ما يريد، ولكنه إذا ذهب فلا ترجى عودته.

ويقول:

يا من تعجَّب من مشيبي عاجلاً
نكدُ الزمان يُشيب كلَّ أديبِ

ما شبتُ من كبرٍ ولا من لوعةٍ
شبت لوشك نوى وفقدِ حبيب

لكن لطول أسى وفقدِ مكارمٍ
وصروف أحداثٍ وجور خطوب

ولعَ الزمان بهدم كل مشيَّدٍ
مني وجرَّ عليَّ كل عجيب

حتى كأنَّ تنبهي وتأدبي
وتكرمي عند الزمان ذنوبي

لا طال دهرٌ ليس يرزا جاهلاً
ويُصيب بالمكروه كل لبيب

الخطاب لأحد الذين تعجبوا من ظهور الشيب في رأسه، وهنا يجيبه بأن ارزاء الزمان تشيب الرأس وخاصة الأديب، ويضيف بأنه لم يشب من الكبر، أو من أثر اللوعة، أو البعاد، أو فراق الأحباب، ولكنه شاب من فقدان مكارم الأخلاق من الناس، ومن صروف الدهر المؤلمة، وعلى الأخص حينما هجم الدهر عليه فهدم كل ما قد شيده، ولعل السبب نباهته وكرمه، وأخيراً ينعي الدهر الذي لا يحاسب الجاهل، بل يأتي بالمكروه للعاقل.

## الْحِكَمْ:

الحكمة ثمرة العقل الانساني، وآية التفكير في المجتمع والانسان، بل هي الاحساس الفكري بواقع الحياة، وتميم في هذا المجال يحكم على الأشياء بمنظار العقل والتجربة، فهو عندما يتكلم بالحكم فيعني فيها الأخلاق، والاجتماع، والشكوى من الناس، والزمان، وحسدهم، وصداقتهم المتقلبة، ويظهر في مقاطعه الضجر من المجتمع الفاسد الذي حكم عليه بأن يعيش فيه.

يقول:

بلوت الزمان وأحداثه
على السلم منهنَّ لي والوغى
فما فلَّلت حربها لي شباً
ولا ازددت بالسلم عنها رضا
أرتني التجارب ما قد بدا
فقستُ به كل ما قد خفا
إذا الجَدُّ لم يسمُ بالمرءِ لم
ينلْ بالنباهة أقصى المُنى

يذكر أنه خبر الزمان، ومفاجئآته، وتقلباته في السلم والحرب، فلم يتأثر بالسلم ولا بالحرب، وإن التجارب قد كشفت له عن الكثير من أسرار الحياة، فكان يقيسُ بها كل شيء مستور، وينتهي إلى القول: بأن الجد وحده هوالذي يرفع الانسان وينيله أقصى ما يتمناه.

وقال:

إذا الدهر أعطاك القياد مُمَّلكاً
ودارت بما ترجو عليك سعودُه
فلا تعمَ فيه عين قلبك حيرةً
وخذْ وأفدْ من كل ما تستفيده
يموتُ الفتى طفلاً وكهلاً وعبطة
ويبقى على الأيام والدهر جودُه

هنا يقدم تميم وصايا، ويأتي بحكم، فهو يدعو كل من يمنحه الدهر السعادة الى التيقظ فلا تعمى عيناه عن الرؤية، وعليه أن يفيد غيره مما استفاده، ويرى أخيراً أن الفتى والكهل والشاب جميعهم يفنون ولكن يبقى جودهم وعملهم.

وقال:

أعلى المراتب ماتبنيه مجتهداً
وأفضلُ المجد ما تحويه بالنصب
بتْ ساهراً عند رأس الأمر ترقبه
ولا تبت نائماً عنه لدى الذنب
والهمُّ بالخطب قبل الخطب منبهةٌ
ومن رمى بسهام الحزم لم يَخب
وأفضلُ الحلم حلمٌ عند مقدرة
وأعذبُ الجود ما وافى بلا طلب

يذكر أن أعلى المراتب ما يبنيه المرء لنفسه بالجد والتعب وسهر الليالي، فمن رمى بالحزم يصيب الهدف، ومن يدفع الخطب بالخطب فهو الرجل المقدام، وعلى الانسان العاقل أن يدفع المصيبة قبل وقوعها، وما أجمل العفو والحلم عند المقدرة، وما أحسن الجود إذا أعطيَ بدون طلب.

## الهجاء:

لم نعثر في ديوان تميم إلاَّ على مقطوعة صغيرة يهجو بها أحد الكتاب، ويبدو أن الشاعر لم يطرق هذا الباب، أو أنِ المناسبات لم تهيء له من يهجوه.

يقول:

| | |
|---|---|
| إذا لم تعـرف الـخيـرا | فـتـأتـيـه ولا الـشـرَّا |
| ولم تقصـد بـأفعـالـك | لا نـفـعـاً ولا ضـرَّا |
| ولم يعـدل بـك التمييز | لا يُـمـنـى ولا يُـسـرى |
| فـأنت المـاء لا يعـود | بـه تيّاره الـمـجـرى |
| وأنت السيف لا يغـري | إذا مـا لـم بـه يغـرا |
| فما حقـك أن تستمع لا | ذمـاً ولا شـكـرا |
| ولكن أنـت في جهلك | كـالآكـل مـا يـخـرا |
| وكـالسكـران لا يـدري | بـمـا يـفـعـله سـكـرا |

يتهمه بالجهل، فهو لا يعرف الخير من الشر، ولا النفع من الضرر، ولا اليمين من الشمال... أنه كالماء الراكد، أوِ كالسيف المغلول أو كالذي لا يسمع الذم ولا المدح... أنه كمن يأكل بوله، أو كالسكران الذي ضاع عقله فلا يعرف ما سيفعل.

## العتاب والدهريات:

في ديوان تميم قصائد كثيرة في العتاب والشكو من الدهر، ويظهر أنه أحس بالآلم وذرف الدموع حينما تنكـر له الأهل، والأصدقاء والدهر، وقد نرى تميم في هذا الفن الشاعر المتلفع بـالآلام، الطافـح الشعور، الباكي على ما أصابه من السهام ومن مصائب الحياة.

يقول:

يا دهرُ كم يشتدَّ حربُك ويكـرُّ بالنكبـاتِ خطبُـك
ما بال جــورك لا يفيق ولا يـلينُ عـليَّ قـلبُــك
يـا دهرُ مـا ذنبي اليـك وقـد تعـاظم فيَّ ذنبــك
بيني وبينـك في الـذي أولـيتـني ربـي وربُّــك

الخطاب هنا للدهر الذي ما برح يحاربه حرباً لا هوادة فيها، حتى أن قلبـه لا يلين له، فهـو ما زال يعاصيه في كل أعماله، وهو بالرغم من كل ذلك لم يقترف ذنباً تجاهه، بل الذنب من الدهر، وأخيراً يرد ذلك إلى الله ليحكم له.

وقال:

أرى محن الأيام ما لي مـذ سطت
يـدٌ ليس يخلو من شباهـا ولا زندُ
خــطوبٌ وأحــداثٌ إذا مــا لقيتني
تـفــرَّقن والـمبـيَّض مـنـي مـســوَّدُ
وكم سـرتُ لا أبغي سواي مشيّعـاً
لقلبي ولا عــزمي بغيــريَ يـشتــدُّ
وأقـدمت الحاحـاً على كل مـطلبٍ
فلم ينفـع الاقدامُ إذ لم يكن جـد
ومن كـان ذا علمٍ بـأهـل زمـانــه
تـيـقـن أنَّ الـنــاس كـلهُّـمُ وغـد

ـــ يذكر أن عوادي الأيام لا تزال تسطو عليه، وإن خطوب الدهر، وأحداثه تظل مرافقة له، فلا تتركه إلاّ بعد أن يكللِ رأسه الشيب، ومع ذلك فانه يقابلها بكل احتراز جاعلاً دليله قلبه وعزمه واقدامه، ولكن كل هذا لم يأتِ بالثمرة المطلوبة، وينتقل إلى التبرم والشكوى من الناس وأهل الزمان الذين هم أوغاداً لا يمـوت حقدهم، ولا يحفظون العهد.

وقال:

يــا دهــرُ مــا أقســاك من مـتلونٍ
في حــالتيـك ومــا أقلك منصفــا

أتروح للناس الجهول مساعداً
وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفا
وإذا صفوت كدرت شيمة باخلٍ
وإذا وفيت نقضتَ أسباب الوفا
لا أرتضيك ولو صفوتَ لأنني
أدري بأنك لا تدوم على الصفا

يصف الدهر بأنه قاسٍ، ومتلون، وغير منصف، فهو يساعد الجاهل الخامل، ويسلط سيفه على الحر الشريف ويختتم أبياته بعدم الرضى عنه، لأنه يعلم أنه لا يدوم على صفاء.

وقال:

ومن جرَّب الأيام تجربتي لها
درى أنها ليست تدوم على معنى
وأكثر ما أهجوك يا زمني به
من العقل أني لم أُحسنُ بك الظنَّا
ذممناكَ يا صرفَ الحوادث فانتصرْ
وسؤناك يا ريبَ الزمان فخذ منَّا

تميم هنا يذكر بأن تجربته للدهر أوصلته إلى حد

القول بأنه لا يدوم على حال، وأنه حينما يهجوه يعلم أنه لم يحسن به الظن، وينتهي إلى ذمه كعادته في كل قصائده.

# بين الوليد الأموي، وابن المعتز العباسي، وتميم الفاطمي

فكرة الكتابة عن الشعراء الثلاث: الوليد وابن المعتز، وتميم، راودتني منذ أمد طويل، بل أخذت عليَّ مجرى اهتمامي وتفكيري، وأني لا أرى أجدر من شعراء العاطفة، والجمال بالاهتمام، فهم الذين كتبوا القصص المثيرة، وملكو القدرة على التنكر لعادات وتقاليد مجتمعاتهم، وخرجوا على سنن الشرائع والأديان.

وعندما نضع أمام الأنظار هؤلاء الشعراء الثلاث: الأموي، والعباسي، والفاطمي، فاننا نلمس تشابههم في الكثير من الصفات، والعادات، والطباع، وتقاربهم في الميول، والأهواء، والنزعات، فكلاهم أمير، وخليفة، وشهيد، وشاعر، وماجن، وخمري، وصيَّاد، وعاشق للجمال، وكلاهم ينتسب لبيت النبوءة يفاخر بنسبه، ويتعالى بحسبه:

يقول الوليد الأموي:

أنا ابن أبي العاصي وعثمان والدي
ومروان جدي ذو الفعال وعامرُ
أنا ابن عظيم القريتين وعزها
ثقيفٌ وفهر والعصاة الأكابر
نبيُّ الهدى خالي ومن يكُ خاله
نبيُّ الهدى يقهر به من يفاخر

ويقول ابن المعتز العباسي:

أيها السائلي عن الحسب الأطيب
ما فوقه لخلقٍ مزيدُ
نحن آل الرسول والعترة الحق
وأهل القرى فماذا تريد؟
ولنا ما اضاء صبحُ عليه
وأتته رايات ليل سود

ويقول تميم الفاطمي:

إذا لم أصدِّق ظنَّ كل مؤملٍ
ولم أحمِ عرض بالسماحة والبذلِ
ولم أطع المعروف والبر والعُلا
وأعصِ ذوات الحسن والأعين النجل

فلستُ ابن من عزَّت به كـل دولةٍ
ونجل النبي المصطفى خاتمُ الرسلِ

نحن أمـام شعراء ثـلاث ملكوا ناصيه العـاطفـة والوجدان، وضربوا بسهم وافر في مجال الغزل بالخمرة والندمان والسقاة والكأس والحانات والطرد والسماع، أمَّـا الفنون الشعـرية الأخـرى فلم يفتهم التحليق في أجوائها، ولكنها لم تطبعهم بطابعها... فهم شعـراء الحانات الغاصة بالشعراء والخلعاء المتسكعين الهازئين بالحياة المستخفين بأمور الدنيا الذين يتسللون خلسةً أو عياناً فيجلسون في رحابها يتنادرون ويتناشدون ويسمعون وينظرون ويشربون بينما تعبق روائح الصهباء، وتتعالى العـربدات والأنغـام، وتـظهـر اللوحـات الفنيَّـة ضمن إطارات الجمال فتوحي لهم الصور الشعـرية الـرائعة والقوافي الرقيقة العذبة.

شعـراء ثـلاث عـاشـوا غــربـاء في مجتمعــاتهم وأوطانهم... غربـاء بتفكيرهم وشعـورهم وعاطفتهم، فقلوبهم لم تكن تخفق إلَّا للحب، وعروقهم لم تكن تنبض إلا للهوى، وعيونهم ما أحبت سوى التملي من الجمال المتمثل بالعيون النجل والخدود الأثيلة، والقدود الميـاسة والخمـرة المخدرة والسـاقي الأغن المنقـطع

الردف المليح الدل، والرياض الغناء والعذران المنسابة والورود الفواحة والحانات ذات البخور والعطور والصوت الجميل العذب يرافقه الغيثار والعود.

كانت حياتهم جهاد دامٍ في سبيل إشباع عاطفتهم من الحب، وإملاء رغباتهم من الجمال، أو قل عنها سلسلة من الأفراح والكؤوس المعتقة الصافية، وباقة من الورود العطرة الفوّاحة. أما ترانيمهم فصداح البلابل وهديل الحمام وابتهالات المنقطعين في الاسحار للعبادة، وأمّا تفكيرهم وذكاءهم فيسموا إلى ما فوق تصوراتهم وأفكارهم... أنهم رسل الفن والجمال والشعر الملتهب رقة وعاطفة ودعاة الحياة المستهترة العابثة التي من مقوماتها التنكر للمجتمعات القائمة وللتقاليد والعادات البالية... انهم فلاسفة العاطفة يأتون إلى عالم غير عالمهم وإلى مجتمع غير مجتمعهم، وإذا كانت الظروف قد قضت بأن تسلموا المقدرات، ويسوسوا الناس ثم يفشلوا أخيراً في معركة الحياة فتلك كانت خطيئة الأقدار.

أي مجتمع هذا الذي أخذ عليهم تهتكهم وهيامهم بالجمال، وولعهم بالخمرة والصيد والسماع؟ أي مجتمع هذا الذي أعلنها عليهم حرباً شعواء؟ ألم يكن

في ذلك المجتمع من يـرتكب الجرائم في الـظلام، ويقترف الفاحشة بالسر؟ وهل العالم الذي عاشوا فيه كـان مثـاليـاً إلى درجـة محـاسبتهم على تصـرفـاتهم الخاصة، وأخيراً الحكم عليهم بالموت؟ اليس الشاعر انسان يحق له أن يتمتع بحريته كاملة، وأن يتصرف بها وفق رغباته وأحاسيسه، أليس الشاعر عصفور خلقه الله ليهز المشاعـر ويحرك العـواطف وينفح الـدنيا شبـاباً وربيعاً، ويعطي القلوب ندىً وظِّلاً؟ وهل يجيد الغناء والترنم من حرم لذة الحرية وسجن في الأقفاص؟ أليس الشاعر قيثارة ذات أوتار خفيَّة وألحان علويَّة تمنح الكون الأمل والهوى والبسمات؟ أليس الشاعـر هو المصـور الذي يرسم على لوحة الدنيا الصور الجذابة للعاطفة والحب؟ أمَّا أنه حللَّ المحرمات لنفسه واختلس أوقات السرور، وهام بالجمال واخترق حرمة الخلافة وأعطى نفسه حرية الانغماس في الملذات علانية، فلا يوجد تفسير لذلك إلاَّ القول بأنها ثورة العبقريـة ومعطيـات الذكاء، وكم يكن البون شاسعاً بين من يفعل ذلك جهراً وعلانيةً، وبين من يفعلها سراً وكتماناً.

الوليد ابن المعتز وتميم عاشوا غرباء في أوطانهم، ولا أدري هل هم الذين أرادوها غربة دائمة، أم أن الأقدار دفعتهم إليها دفعاً، فنحن نعلم أن أكثر الشعراء

غرباء، ولا يفهم غربة الشاعر إلاَّ الشاعر، كما لا يستطيع أن يتغلغل إلى مداخل هذه الغربة ويفجِّر عناصرها ويشرح كوامنها إلاَّ من أوتي الحظ الوافر من رهافة الحس وذكاء الوجدان.

لقد درسنا هؤلاء الشعراء من خلال أشعارهم، فنفذنا إلى روحهم وعواطفهم وأفكارهم، واخترقنا الحجب والأستار إلى إحساساتهم وانفعالاتهم، وكشفنا عن أغراضهم ومراميهم وألفاظهم ومعانيهم وبيانهم، وما أحلى سهر الليالي وتقرح الأجفان في سبيل استجلاء الحقيقة، أو إحياء ذكرى عبقري مغمور، أو فنان منسي، والأدب لا يحلو إذا لم يشب حلاوته مرارة مقرونة إلى تعب ومشقة.

إذن فعندما نصفهم ونبالغ بوصفهم، فلا نكون قد اتبعنا سبيل العاطفة والمغالاة، فالوليد وابن المعتز وتميم كانوا يمثلون مدرسة الشعر الحديثة بالنسبة لعصرهم، فكان لكل منهم شبابه وجماله ونسبه وشاعريته وثروته ومركزه، مما سهل عليه سبل الملذات. فلهوا وعبثوا وتتبعوا خطى الغانيات والغلمان، وتهتكوا وناموا في الحانات، وانطلقوا من كل قيد وعرف وتقليد، ثم أرسلوا شعارهم إلى الاسماع، فجاء يمثل الشعر

الوجداني الرقيق، وكأنه الأوتار المؤتلقة النغمات، أو الأنفاس الشذية الفواحة التي تنفذ إلى القلب وتتصل بعالم الروح.

في حياة كل من الوليد وابن المعتز وتميم قصة مثيرة تحرك الأسى وتدمي العيون... أنها الفاجعة الانسانية التي تضاف إلى الفوا جع التي يرتكبها الانسان منذ فجر التاريخ، وأني مواري أجمل من قول الوليد، وهو يعبر عن عقيدته ورأيه في الحياة.

أشهدُ الله والملائكة الأبرار
والعابدين أهل الصلاح
أنني اشتهي السماع وشرب الكأ
س والعضٍّ للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفاره
يسعى عليَّ بالأقداح

وكم هو رائع قوله قبل مقتله ببضعة دقائق:

دعوا لي سليمى والطلاء وقينةً
وكأساً الاحسبي بذلك مالا
إذا ما صفا عيشي برملة عالجٍ
وعانقتُ سلمى لا أريد بدالا

خـذوا ملككم لا ثبت الله ملككم
ثبـاتـاً يسـاوي مـا حييتُ عقـالا
وخلوا عنـاني قبل غيـرٍ ومـا جـرى
ولا تحسـدوني أن أمـوت هـزالا

ويرد عليه ابن المعتز بالرغم مما بينهما من بعد في السنين:

تـمتـع بـالـمسيـرة والـشبـاب
فقـد بـرز الـربيـعُ من الحجـاب
فحيّ عـلى المـدام بـكف سـاق
يـديـرُ الخمـر من بـردٍ عـذاب

ويقول:

إذا كـان يـومي ليس فيـه مـدامـة
ولا يوم ندمانٍ فما هـو من عمري
وإن كـان معمـوراً بعـودٍ وقينـةٍ
فـذلك مسروق لعمري من الـدهر

ويقول:

تعـالـوا فسقُّـوا أنفسـاً قبـل مـوتهـا
لـيـأتـي مـا يـأتـيـه وهـو رواءُ
نـبـادر أيـام الـسـرور فـانـهـا
سـراعٌ وأيـام الـهـمـوم بـطاء

ويأتي دور تميم فيعلنها ثورة عامة على المجتمع بقوله:

إنـمَّـا العـيش بلوغ الســؤلِ مـمَّـا تـشـتـهـيـهِ
ومـدام تـصـطفـيـهـا ونـديـم تـرتـضـيـه
ورخيم سـاحـر الـمقـلةِ مـعـدوم الشـبـيـهِ
جـمـع التَفـاح والـراح نـجـديـه وفـيـهِ
نـزق مـن عـاذلـيـه صـلفٌ في عـاشـقـيـه

ويقول:

ربَّ لـيـل وصـلتـه بـصـبـوحٍ
وصـبـاحٍ وصـلتـه بـغـبـوق
ونـعـيـم جـذبـت طـيـب الأمـانـي
فيـه جـذب الصـدود للمعشـوق
وكـؤوس المـدام تـحمـل مـنـهـا
نسم المسـك في لميـع البـروق
لا أحـب الـحـيـاة إلاَّ لأمـر
ين مـدى اللهو أو قضـاء الحقـوق

مما لا ريب فيه أن الأدب العربي المعاصر يجتاز مرحلة التطور والانتقال إلى أدب عالمي بمعناه ومبناه، وكم هو جدير بحملة لواء هـذا الأدب أن ينقبوا عن

المواضيع الشيقة التي ترقد في كهوف النسيان ويشبعونها بحثاً ونقداً وعرضاً، وكم هو جدير بهم أيضاً أن يخصوا عباقرتنا الملهمين الذين أغفلهم التاريخ عمداً المزيد من الدراسة متجاوزين الأسباب التي كانت تقف حائلاً بيننا وبين كنوزهم الأدبية، ولعلّ العصور التي ذهلت عنهم وتغافلت عن ذكرهم تعود اليوم، وقد انقشعت الغيوم وظهرت السماء صافية من كل أثر يحجب النور والضياء.

إن اليقظة الأدبية يجب أن تتناول أخطاء الماضي بالتصحيح، والنهضة لا تبنى إلَّا على القواعد المتينة من حرية الفكر والنقد والدرس، وإن النضار يبقى على حاله إذا لم تمتد إليه كف المصارف.

ونعود إلى الوليد لنصفه: بأنه فتى أموي ظريف جواد وهبته الأقدار من شرف الأرومة وطيب العنصر وجلال النسب ما جعل الأنظار تتوجه إليه أينما سار وحيثما حل: أنه أمير عربي عابث عاش على الكأس والجمال والسماع وقد اتخذ منه الناس قصة له يرويها في المجالس والمنتديات. شاب في ميعة الصبا وطراوة الشباب وصباحة الوجه ووسامة الطلعة بسطت النعمة عليه أكنافها وطبعته الكبرياء بطابعها وألقى الشعر عليه

رقيقه وحلوه. انه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أميـة بن عبد شمس بن عبد مناف وكنيته «أبو العبَّـاس». ولد في دمشق سنة ٨٤ هـ وعاش ومات فيها، والتاريخ يذكره بانه الخليفة الأموي الحادي عشر... ولي الخلافة سنة **١٢٥** هـ ثم نقم عليه الناس اليمنيه خاصة وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فنادى بخلعه وتسلق اليمنية قصره وقتلوه سنة **١٢٦** هـ وكان عمره/٤٢/عاماً.

عاش في دمشق والحياة فيها تشكل عنصراً تنبثق منه اللذة والأنس، فالحياة في البلد الناعم الجـزلان تنفتح على عالمٍ يمور بالمشـاهد الجميلة التي تغنى عناصرها وتذوب في الدعة والجمـال... انها دمشق ذات الأنهار الجذلى المنسابة الرقراقة والأشجار الوارفة ذات الخضرة والظلال... انها شام الأمـويين وأروع مدن الشرق حسناً وألطفها مناخاً وأعذبها ماءً وأينعهـا ثماراً... انها جنة مورقـة أنهارهـا سلسل وقصـورها شامخة منيفة وجبالها عالية ضاربة في السماء وألوانها آخذة من حمرة الطفل، أما رياضها ففيها مغارس الآس ومنابت الورد ومواطن الأرواح.

في أحيـائها الجميلة انـطلق الأمير الأمـوي يقول

الشعر ويرشف الخمر ويتغزل بالحسان ويضرب بالعادات والتقاليد عرض الحائط متناسياً أنه ابن خليفة وولياً للعهد، غير أن كل هذا لم يكن ليخفى عن عين كل متفرس مسحة من الحزن كانت تظهر على قسمات وجهه، وكم مرة حاول أن يخفيها فلم يستطع، أنها مسحة الألم الذي ولَّده قرار والده الخليفة يوم أوصى بالخلافة لأخيه هشام وفضله على ولده الوليد فهذا الاختيار لم يكن ليرضيه، وكان أن ولد عنده تلك المسحة من الألم وذاك البغض للمجتمع مضافاً إلى ذلك الاستهزاء بالقيم والعادات والتقاليد والأديان.

لماذا يستثنى الوليد من الخلافة؟ ألأنه صغير السن؟ والسن ما كان يوماً من الأيام بالعائق عن تولي الحكم... انها غلطة وقع فيها الخليفة يزيد واعترف بها فيما بعد عندما كان ينظر إلى ولده الوليد ويقول [الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك].

وتسلمها هشام ولكنه تنكر للقسم الذي أقسمه، وأرادها أن تبقى في ولده، فأعلن وأكثر من اعلان أن الوليد متهتك ومدمن على الشراب والمجون ولا يصلح للخلافة، ثم أنه لم يتورع عن حياكة المؤامرات ضده لابعاده عن الخلافة، ومن ذلك أنه أمره أن يتولى شؤون

الحج ليظهره بمظهر المستهتر فيسقط بنظر المسلمين، والوليد لاهٍ عما يحاك حوله، وأخيراً طلب اليه أن يخلع نفسه فأبى فحرمه من العطاء وجفاه جفاء شديداً. وهذا ما جعله يخرج إلى البادية ليصرف فيها أيامه، وفي تلك الأثناء سمَّى هشام لولاية العهد مسلمة وكان يكنّى «أبا شاكر» واشتهر بالمجون وشرب الخمرة. ومما هو جدير بالذكر أن هشاماً كتب إلى الوليد وهو بالصحراء يقول له: ما تدع شيئاً من المنكر إلاَّ أتيته وارتكبته غير متحاشٍ ولا مستتر فليت شعري ما دينك؟ أعلى الاسلام؟ أم لا؟ فأجابه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجةً بالسخن أحياناً وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه مسلمة وقال: يعيرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة فالزم حدود الأدب واحضر للصلوات، فاظهر مسلمة النسك ولكن كل هذا لم يمنع - خالد القسري - من أن يقول: [أنا بريء من خليفة يكنى أبا شاكر] فبلغت هشام وكان سبب إبعاده عنها.

أجل... خرج الوليد من دمشق إلى الصحراء منفياً في ليلة أبترد هوائها واهتزت رياحينها وورودها وفتحت

أنفاسها المعطرة للندى البليل، وسحبت خيوط الذهب الطفيلية على الجبال والأودية. . فقال الوليد: وهو يلوي أعنة فرسه مخاطباً الأرض التي صبَّ في نظرتها رواء شبابه وبهاء أيامه، وخلّف فيها أرق قوافي الشعر وأبهى صور الحب. . . وداعاً يا أرض الشام. . . وداعاً أيها الأفق الجميل الذي تنيره شمس دافئة لا تمل الحياة المرحة والصفاء، ولكن لا وداعاً لك يا هشام فقد تنكرت لي بعد قسمك وهاجرتني من موطني ليخلو لك الجو أنت وولدك:

كفـرت يداً من منعمٍ لـو شكرتهـا
جزاكَ بها الرحمن ذو الفضل والمنِّ
رأيتـكَ تبني جـاهـداً في قـطيعتي
ولو كنت ذا حزمٍ لهدمت ما تبني
أراك على البـاقين تجني ضغينـةً
فياويحهم إن متَّ من شرِّ ما تجني
كـأني بهم يـومـاً وأكثـر قـولهم
أيـا ليت أنَّا حين يـا ليت لا تفني

ومن القصص التي تـروى عن الوليـد أنـه كـان ملحداً، وكان لعبد الصمد بن عبد العلي المقلب بأبي وهب وهو أستاذ الوليد التأثير الأكبر عليه. . ويروى أنه

دعا ذات ليلة بالقرآن ففتح على ورقة جاء فيها: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماءٍ صديد﴾ فقال: اسجعا... اسجعا.. علقوه.. ثم أخذ القوس والنبل وظل يرميه حتى مزقه ثم قال:

أتوعد كل جبار عنيدٍ | فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشرٍ | فقل لله مزقني الوليد

يعتبر الوليد من الشعراء الأوائل الذين أسسوا المدرسة الخمرية في الشعر العربي، ففي هذا المضمار قلمَّا يجاريه شاعر على الاطلاق، وأن شعراء العربية الخمريين الذين جاءوا بعده كلهم مدينين له بالأفكار... ولنسمع اليه عندما جاءه نعي عمه هشاماً الذي مات في الرصافة.

طابَ يومي ولذَّ شرب السلافة
إذ أتاني نعي من بالرصافة
وأتانا البريد ينعي هشاماً
وأتانا بخاتمٍ للخلافه
فاصطحبنا من خمر عانة صرفاً
ولهونا بقينةٍ عزَّافه

وإلى قوله وهو من أروع ما قيل:

أصـــدع نجيَّ الهمـــوم بـــالـــطرب
وأنعم على الـــدهـــر بـــابنـة العنب
واستقبـــل العيـش في غـضـــارتـــه
لا تـقـفُ منـــه آثـــار مـعـــتـقـــب
مـن قـهـــوةٍ زانـــهـــا تـقـــادمـــهـــا
فهي غـجـــوز تعـلو على الـحقـب
أشهى إلى الشـــرب يـــوم جلوتهـــا
مـن الفـتـــاة الكـــريـمـــة الـنـسـب
فـقـــد تجـلَّت ورقّ جـــوهـــرهـــا
حـتى تـبـــدَّت في مـنـــظرٍ عجـب
فـهي بـغيـــر الـمـــزاج مـن شـــررٍ
وهي لـدى المزج سـائـل الـذهب
كـــأنـــهـــا في زجـــاجـــهـــا قـبس
تـــذكـــو ضيـــاءً في عين مـــرتـقب
فـي فـتـيـــةٍ مـن بـنـي أمـيـــة أهـ
ـل المجـــد والمـأثـــرات والحسب
مـــا في الـــورى مثلهم ولا فـيهـم
مـثـلي ولا مـنـتـمٍ لـمـــثـــل أبـي

ومن غزله الرقيق:

أسعــدة هــل اليــك لنــا سبيــلٌ
وهــل حتى القيــامــة من تــلاقي
بــل ولــعــلَّ دهــراً أن يــوآتــي
بـمــوتٍ مـن خــليـلك أو طــلاق
فــأصبــح شــامتــاً وتبـقــرُّ عيـني
ويـجمــع شـملنــا بـعــد افتــراق

وأخيراً قتل الوليد بعد أن ترك في تاريخ الأدب العـربي سجلاً خـالداً حـافلاً بـالعـواطف، فكم أثـار الكوامن وفجَّر الأحاسيس.

وممَّا جاء ذكره في الأغاني أن ابناً للغمر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد فقال له ممن أنت؟ فقال له من قريش... قال من أيها؟ فأمسك... قال: قل وأنت آمن ولو أنك مرواني... قال أنا ابن الغمر بن يزيد... قال: رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص وقتله عمك الوليد.

أمَّا عبد الله بن المعتـز فهو من فحـول الشعراء العباسيين، وعلم مرموق من أعلام الأدب، وكاتب أديب صال وجال في حلبة العلم، فكان متعمقاً في الثقافة ونزوعاً إلى التفكير ومؤثراً في شعره المعاني العميقة

والآراء الجديدة والألفاظ الرقيقة ذات البديع والتشبيهات، فهو مصور بارع طرّز قصائده بألوان البديع ووشاها بحلل الجمال... ولد في سامراء سنة ٢٤٧ هـ. جده جعفر المتوكل ووالده المعتز الذي كان ولياً للعهد في عهد المنتصر ثم سجنه المستعين في سامراء بحجرة ضيقة، فقضى ثلاثة أعوام كلها آلاماً وأحزاناً وحرماناً من ولده الصغير (عبد الله)، وعندما هدأت الأعاصير سنة ٢٥١ هـ أطلق سراحه وبويع له بالخلافة في سامراء فدخل بغداد وقضى على المستعين وأنصاره وفي سنة ٢٥٦ هـ خلع من الخلافة ثم قتل بعد أحداثٍ جسام. فشردت الأسرة وصودرت أموالها، وكان عبد الله في عامه الثامن عشر فأقام في سامراء متخفياً يعيش على بقايا أموال تركها له والده وهناك دأب على تلقي العلم والأدب على الأئمة العربية وشيوخها كالضبي النحوي والبحتري الشاعر وأحمد بن سعيد الدمشقي والبلاذري المؤرخ والعنزي أحد رواة الأغاني والمبرد وثعلب وعندما سمح له بدخول بغداد أخذ يلازم العلماء والشعراء من جهة ويعكف على حياة اللهو والترف من جهة أخرى، وكانت بغداد في ذلك العهد تعجُّ بشعراء الخمرة والمجون والصخب العابث.

وبعد وفاة الخليفة المكتفي سنة ٢٩٥ هـ أصبح جعفر بن المعتضد خليفة للمسلمين وتلقب بالمقتدر بالله ولكن كل ذلك لم يمنع سريان موجة السخط والثورة عليه بتشويق من كبار القواد والقضاة والجمهور، وفي صباح سنة ٢٩٦ هـ خلع ونصب عبد الله بن المعتز مكانه ولقب بالمنتصف بالله، ولكن يبدو أن فريقاً كبيراً كان ساخطاً على تلك التولية، فهاجموه في دار الخلافة، فخرج اليهم حافياً وعليه غلالة من قصب فوقها مبطنة صفراء فلطمه المهاجمون حتى انكب على وجهه فأدخلوه السجن ثم عذبوه بأن عصروا خصيتيه وقيل أنهم وضعوا الثلج في سرواله ولم يزل كذلك حتى مات، بينما المقتدر يشرب الخمرة وكانت مدة خلافته يوم وليلة.

اشتهر عبد الله بن المعتز بتشبيهاته البديعة كقوله:

كأنَّ أباريق اللجين لديهم
ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأنَّ رؤوسهم
من اللين لم يخلق لهن عظام

ومن تشبيهاته البديعة أيضاً:

سقتنَي في ليـل شبيـهٍ بشعـرهـا
شـبيـهـة خـديهـا بـغيـر رقـيـب
فأمسيت في ليلين بالشعـر والدجى
وشمسين من خمـرٍ وخـدٍّ حبيـب

ومن غزله الرقيق:

ورسـول جـاء بـالميعـاد ... مـن بـعـد الـوعـيـد
ونـعـيـم فـي وصـالٍ ... حُـلَّ من طول الصـدود
مـا رأت عيني كـظبي ... زارنـي في يـوم عـيـد
فـي قبـاءٍ فـاضتي الـ ... ـون مـن لبس جـديـد
لـكمـا قـاتـل جنـ ... ـديٌّ بسيفٍ أو عمـود
قـاتـل النـاس بعينين ... وخـديـن وجـيـد
قـد سقـاني الـراح من ... فيـه على رغم الحسـود
وتـعـانـقـنـا كـأنـي ... وهـو في عقـدٍ شـديـد
نـقـرع الثغـر بـثغـرٍ ... طيِّـب عـنـد الـورود
مـثـلمـا عـاجـل بـرد ... قـطرُ مـزيـدٍ بحمـود

أمَّا تميم فقد تحدثنا عنه ما فيه الكفاية وأصبح واجباً علينا أن لا نقول عنه إلَّا ما ذكره ابن الفضل العمري في كتابه مسالك الأبصار (الجزء الثاني عشر): (تشبَّه تميم بابن عمه ابن المعتز وتشبَّث بذيله) وقال

ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء: [شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع، ولا مدافع، وكان فيهم كابن المعتز في بني العبّاس]وقال الحصري في زهر الآداب: [كان يحتذي أمثال ابن المعتز، ويقف في التشبيهات بجانبه، ويفرغ فيها على قالبه].

في نهاية المطاف لا بد من القول، بأن الوليد، وابن المعتز، وتميم هم من أعلام الأدب العربي الذين توجوا الشعر بالثمار اليانعة، والورود العطرة، مما يجدر بالنقاد والأدباء، ويلزمهم باضافتهم إلى سجل الخالدين.

* * *

# المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان


